الإنسان.. والإسلام

بقلم

محَمد الطاهِر الحامدي

من علماء الأزهر الشريف

الكتاب: الإنسان.. والإسلام

الكاتب: محَمد الطاهِر الحامدي

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

الحامدي ، محَمد الطاهِر

الإنسان.. والإسلام / محَمد الطاهِر الحامدي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٩٩ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٠ – ٩٨ – ٦٨٣٧ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٧٧٦٢ / ٢٠٢٠

الإنسان.. والإسلام

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله تعالى وسلم على سيدنا ومولانا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

حكى السلمي عن "طبقات الصوفية" عن مُحَمَّد بن خفيف الإمام الدسوقي الجليل قال "لما خلق الله تعالى الملائكة عليهم الصلاة والسلام، والجن، والإنس، خلق العصمة والكفاية والحيلة، فقال للملائكة اختاروا: فاختاروا العصمة، ثم قال للجن اختاروا: فاختاروا العصمة فقال: قد سبقتم، فاختاروا الكفاية، ثم قال للإنس اختاروا: فقالوا: نختار العصمة، فقال: قد سبقتم. فقالوا: نختار الكفاية، فقال: قد سبقتم. فأخذوا الحيلة! فبنو آدم عليه الصلاة والسلام يحتالون بجهدهم".

ما أظن هذا حديثًا مأثورًا، أو أن هذا التخيير قد وقع فعلاً، وإنما هو تصوير وتمثيل لطبائع هذه الأجناس الثلاثة، وتقرير لحقيقة أمرها، وبيان لما فطرت عليه واستعدت له.

فالملائكة عصمهم الله تعالى عن الشهوات، ولم يجعلهم محتاجين إلى المطالب البشرية، فلا يأكلون ولا يشربون، ولا يتناسلون، فلا يحتاجون إلى زراعة وصناعة وكسب.. بل قوتهم وحياتهم ولذتهم وبهجتهم في الذكر والتسبيح، ومعرفة الله وطاعته "لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ"[1] والجن، وإن كانوا يأكلون ويشربون ويتناسلون، لكنهم قد كفوا مئونة ذلك. فإن طعامهم – كما ورد في الآثار– العظم الذي يأكل الآدميون لحمه، يكسوه الله

[1] سورة التحريم الآية ٦

تعالى لحمًا كما كان، وقد يطعمون من طعام الآدميين أيضًا. وقد أعطاهم الله تعالى القدرة على التشكل، وقطع المسافات البعيدة في وقت قريب.

أما الآدميون فهم المبتلون بالشهوات، المحتاجون إلى المآكل والمشارب، الكادحون في تحصيل ذلك وتوفيره.. وقد تفضل الله عز وجل فأعطاهم القدرة على العمل، وهيأ لهم الوسائل والأسباب، وعرفهم كيف يجلبون ما ينفعهم، ويدفعون ما يضرهم.

فالإنسان مخلوق للعمل والسعي، لا للراحة والسكون، خلق من عنصرين مختلفين وهما: البدن، والروح ولكل منهما مطالب ولوازم تخصه.. وله حياتان. هذه الحياة الدنيا التي فيها نشأ ومنها بدأ والحياة الآخرة التي إليها معاده وفيها مستقره. ولا تتحقق مصالح هاتين الحياتين إلا بالسعي والعمل. فلا محيص للإنسان من ذلك، وهكذا أراد الله عز وجل أن يكون. والخير في الواقع وقديمًا قيل "ليس في الإمكان أبدع مما كان".

مطالب البدن وأمور الدنيا تحتاج إلى العمل، وتدبير الحيل.

ومطالب الروح ومعرفة الله تعالى وأعمال الآخرة تحتاج إلى العمل وتدبير الحيل.

فالعمل لازمة من لوازم الإنسان، وخاصة من خصائصه، وهو مهيأ لذلك وميسر له.

ومن الأسف أن القليل من الناس هم الذين جمعوا بين القيام بمصالح الدنيا، ومطالب الدين، وهم الذين عرفوا كيف يلائمون بينهما من غير إفراط ولا تفريط.

أما الكثرة الكاثرة، والجم الغفير فقد أغفلوا شئون الآخرة وانكبوا على

شهوات الدنيا، لها يعملون، وفى طلبها يكدحون، ذلك مبلغهم من العلم "يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآَخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ[1]"

شغلوا بالأكوان عن مكونها ومبدعها.. وآثروا ما يفنى على ما يبقى، عرفوا علم الأبدان، وجهلوا علم الأديان.

برعوا في تدبير الحيل لاقتناص الشهوات، وأعيتهم الحيل التي يروضون بها أنفسهم حتى تستقيم على الأمر والنهي، بل وصل العجز والإعياء ببعض الناس إلى حد أنهم لم يعرفوا طريق الإيمان بالله تعالى خالقهم ورازقهم "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آَمِنُوا كَمَا آَمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آَمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ[2]"

ما هذا الانتكاس؟ تقدمت البشرية في الصناعات، وتفننت في المخترعات، وارتقت في العلوم والفنون في البر والبحر.. وفي السلم والحرب.. استغلت الأرض.. وراحت تسبح في الفضاء.. وكل يوم تطلع علينا من فنها بالأعاجيب.

دخلت مخترعاتها في كل شئون الحياة، بما يبعث الدهشة ويثير العجب، بل غزت عالم الإنسان نفسه، وتفوق الطب ونبغ فيه عباقرة وعلماء.

عرفوا الأجهزة التي يحويها الإنسان في جسمه، وفائدتها وخصائصها. وما يصلحها وما يضرها، بحثوا في أعضائه في أذنيه وفى عينيه، بحثوا في أحشائه وباطنه، بحثوا فيه من رأسه إلى قدميه، عرفوا "جهاز التنفس"، وفائدته، "والجهاز الهضمي" وخاصيته، وأوعية الدم والشرايين.. عرفوا ذلك وأتقنوه في حذق وبراعة..

---

[1] سورة الروم الآية ٧

[2] سورة البقرة الآية ١٣

ولكن أكثرهم – على كثرة ما عرفوا – سفهوا أنفسهم وجهلوا – ويا للأسف – عن بواطنهم أنفس شيء وأغلاه.

جهلوا الروح والأسرار والقوى التي أختص بها الإنسان، وامتاز بها عن سائر الكائنات..نظموا جهاز البدن، وعطلوا جهاز الروح. ولو عرفوا أنفسهم لعرفوا شئيًا كثيرًا.. لعرفوا حقيقة الحقائق، واهتدوا إلى الله واجب الوجود. "وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ[1]" لو فقهوا عالم الروح وخاصية العقل، ما وسعهم أن ينكروا الله خالق الإنسان ومبدع الأكوان.

ولكنهم غفلوا عن ذلك فرحوا يكفرون في عناد وإصرار. .صيحات من هنا ومن هناك.. ودعوات تهتف في الشرق والغرب.. وجودية.. وشيوعية ونحل ومذاهب شتى ، تبغي الحياة إباحية ووقاحة.. ومادية وجفافًا، وانطلاقًا وفوضى، تتخلص من قيود الدين وتسبح في عالم الشهوات والأهواء. . تقوض الأخلاق، وتنكر الأديان وتجحد الله رب العالمين.

حبسوا أنفسهم في مضيق الماديات. لا يؤمنون بالغيب، ولا يعترفون بدلائل العقول. "قتل الإنسان ما أكفره".

بلغ به التبجح حتى أنكر خالقه، والمنعم عليه بحياته، وما حوله من الكائنات..أغراه علمه بظاهر الدنيا، واتبع هواه، ولج في العمى والضلال ، لو رجع إلى نفسه، وعاد إلى فطرته يسألها الهداية والرشاد، لهدته إلى الصواب، وأرشدته إلى الحق، ولدلّته على الله بارئ الأشياء.

إن الدليل على الله هو الإنسان، هو أكبر دليل، وأظهر برهان.

يقول بعض العارفين "من صدق في طلب الله تعالى آتاه الله في يده مرآه

[1] سورة الذاريات الآيتان ٢٠ و٢١.

يرى فيها عجائب الدنيا والآخرة".. ولا تحسبن أن هذه المرآة بعيدة منك، أجنبية عنك.. إنها نفسك التي بين جنبيك، هي روحك السارية في بدنك وعقلك المشاهد للغيوب.

أنت مملكة بديعة ومخلوق عجيب.

دواؤك فيـــك ومـــا تبصــــر وداؤك منـــك ومـــا تشـــعر.

وتـــزعم أنـــك جـــرم صـــغير وفيـــك انطـــوى العـــالم الأكـــبر

عجبت أن يعرف الإنسان هذه الظواهر الكونية، ويجهل نفسه، ألصق الأشياء به، وأقربها إليه.

هذا هو الباعث الذي دعاني إلى تأليف هذا الكتيب..أردت أن أعرف الإنسان بنفسه.. وأرشده إلى فطرته وما فيه من عجائب وأسرار. وأبرهن له عن طريق هذه الفطرة على صحة الدين وضرورته.. فما كان الإسلام إلا ثوبًا مفصلاً على الإنسان، غير ضيق مجحف ولا واسع فضفاض.

عرف خصائصه واستثمر قواه.. لاءم فطرته، وانسجم مع طبعه، وسار معه في طريق واحد، يلتقيان ولا يبغيان ، فهو دين قيم لمخلوق عظيم..أراد الله أن يرشد الناس بعد غيّ، وأن يهديهم بعد ضلال ، وشاء أن يصلهم به، ويسمو بهم إلى حضرته، فبعث إليهم أعظم رسول بأكمل دين ، فكانت هداية كاملة شاملة.

كانت هداية تحمل بين طياتها أسباب الخلود.

كانت نورًا من الله يضيء جنبات الأرض كلها لا يعرف الحدود والقيود.

كانت فيضًا غامرًا، ورحمة واسعة تنتظم الدنيا، وتسع العالمين.

رسالة جامعة للإنس والجن، والعرب والعجم.. والبيض والحمر.. رسالة محمد خاتم الأنبياء، وسيد المرسلين، عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام.

كتبت في هذين الأصلين الجديرين بالبحث والتأليف "الإنسان..والإسلام" و "الدين كما تعرفه الفطرة".. والإنسان كما يكشفه الدين وينطبق على الواقع. ولقد صدقت الحكمة المأثورة "إن الله عز وجل أسس دينه على مثال خلقه ليستدل بخلقه على دينه، ودينه على خلقه ، فلله الحكمة البالغة، والتدبير العظيم، أرسل رسوله بالهدى ودين الحق لينظم مواهب الإنسان، ويسير إلى عالم الجمال والكمال، وإلى النعيم الدائم المقيم.

وقد بذلت جهدي في أن أجعله سهل العبارة. قريب المأخذ، ينفع العامة ويرضي الخاصة إن شاء الله تعالى ، واستشهدت بكثير من كلام الأئمة المحققين، ونبهت على ذلك في أكثر مواضعه.

والله أسأل أن ينفع به، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم.

محمد الطاهر الحامدي

القاهرة في

١٨ شوال ١٣٧٩هـ

١٣ إبريل ١٩٦٠م

الإنسان وخصائصه

الإنسان شأنه كبير، وشرفه عظيم، أمره عجيب، ومستواه العقلي والروحي مستوى عالٍ رفيع، واستعداده للمعرفة والكمال استعداد أصيل، وعناية الله تعالى به عناية كبيرة.

أليس هو الذي اختصه الله تعالى بحمل أمانة التكليف، التي عرضها على السموات والأرض والجبال فأبيين أن يحملنها وأشفقن منها..؟ أليس هو الذي جعل الله خليفته في الأرض، ينشر رحمته وينفذ أحكامه وشرائعه..؟ هو الذي اختاره الله سبحانه ليكون عبدًا لحضرته العلوية، وخلقه لمعرفته وعبادته، وجعل الكائنات كلها مسخرة له، ومخلوقة لأجله.

"أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً"(١)

قال العارف المرسي رضي الله تعالى عنه: الأكوان عبيد مسخرة وأنت عبد الحضرة، فالسموات وما فيها من الكواكب، والشمس والقمر لأجل الإنسان، والأرض وما عليها من الجبال والأشجار والأنهار، والحيوان لأجل الإنسان، والإنسان هو عبد الحضرة الإلهية خاصة ، ولهذا كانت حياته لا تستقيم، ومزاجه لا يعتدل، وسعادته لا تتحقق إلا بالعلوم النبوية والشرائع السماوية.

وقد هيأ الله تعالى للإنسان السبب الذى يوصل إليه هذه العلوم، حيث وهب له العقل أو الروح أو القلب أو البصيرة الباطنة– سمه ما شئت– وجعله

(١) سورة لقمان الآية ٢٠

خزانة علمه ومهب نفحاته، ومحل مكاشفاته، وهو أول رسول بعثه الله تعالى للإنسان وميزه به عن سائر الحيوانات، وهو الوصف القابل للمعرفة المستعد للإيمان وإدراك حقائق الأشياء، واحتمال الأمر والنهي، ثم من الله عليه عز وجل – أي على النوع الإنساني–بالنبوة والوحي بأن أعد طائفة من البشر إعدادًا خاصًا، يمكنهم من مشاهدة الملائكة، وتلقي وحي الله تعالى عن طريقهم وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد جعل من أخلاقهم، وأنوراهم، وسيرهم الحميدة، ومعجزاتهم الخارقة للعادة شواهد على صدقهم، ودلائل على نبؤتهم، ودواعي للثقة بهم، وتصديقهم في أخبارهم.

الإنسان جسم وروح

فالإنسان ليس من قبيل الأرض فقط، ولا من محض التراب والطين، وإنما هو مركب من عالمين، ومكون من عنصرين، عنصر ترابي كثيف وهو الجسم، وعنصر نوراني وهو الروح.

أما الجسم فهو هذا المشاهد المحسوس، وهو مخلوق من طين بحسب أصله، وأول فرد منه وهو سيدنا "آدم" عليه الصلاة والسلام، أبو البشر وأصل النوع الإنساني، ومن ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب بالنسبة لسائر أفراده، وقيل إن الكل مخلوق من الطين وهو التراب والماء معنى أن الله تعالى يحيل أعراض التراب والماء وصفاتهما فتصير نباتًا وحبًا وثمارًا يتغذى منها الإنسان فيستحيل لحمًا وعظمًا وعروقًا وعصبًا وجلدًا وشعرًا و دمًا ولبنًا ومنيا، والمني يصب في الرحم فيمكث مدة نطفة ثم علقة إلى آخر الأطوار المذكورة في قوله تعالى "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا

فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آَخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ"(١) وأما الروح فمع القطع بوجودها ووجود آثارها من الحركة والحس والإدراك فقيل أنه لا يمكن معرفتها لقوله تعالى: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلا"(٢) وقيل يمكن معرفتها، وأحسن ما قيل فيها على هذا الرأي أنها جسم نوراني لطيف شفاف مشتبك بالجسم كاشتباك الماء في العود والنار في الفحم، وهذا قول إمام الحرمين.

مقر الروح من البدن

واختلف العلماء في مقر الروح من البدن فمقتضى قول إمام الحرمين المتقدم وهو الصواب أنها سارية في جميع البدن، وقيل إن مقرها البطن، وقيل القلب، وقيل بقرب القلب من البطن، ونسب لجماعة من الصوفية أن محلها الكتف.

مستقر الروح بعد الموت

وأما بعد الموت فقالوا: إن أرواح الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الجنة، وأرواح الشهداء في أجواف طيور خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل معلقة بالعرش، وأرواح غيرهما في البرزخ، والمراد به الحاجز بين الدنيا والآخرة، وله زمان ومكان وحال، فزمانه من حين الموت إلى القيامة، وحاله الأرواح، ومكانه من القبر إلى عليين لأرواح أهل السعادة.. وأما أرواح أهل الشقاوة فهي محبوسة في سجين في الأرض السابعة، وقيل أرواح السعداء في أفنية القبور، وقيل عند آدم عليه الصلاة والسلام في السماء الدنيا لكن لا

---

(١) سورة المؤمنون الآيات: ١٢-١٤

(٢) سورة الإسراء الآية:٨٥

دائماً، فلا ينافي أنها تسرح حيث شاءت- كما قال الإمام مالك ﷺ- وعلى كل حال فلكل روح بجسدها اتصال معنوي، لتنال ما كتب لها من النعيم والعذاب، وورد أن من سلم على قبر شخص كان يعرفه في الدنيا، أنه يرد عليه السلام وهو في قبره ويعرفه. وقد أجمع أهل السنة على أن الأرواح محدثة، خلافاً للزنادقة القائلين بقدمها، ووقع الخلاف في فنائها عند نفخة الصور الأولى وبقائها.. فقال قوم: إنها تفنى ثم تعود كما تعود الأجسام- لظاهر قوله تعالى "كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ"[1] وقوله عزوجل "كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ"[2] وقال آخرون ببقائها، وهو المختار.. وأجابوا عن الآيتين.

بأنهما مخصوصتان بغير ما ورد استثناؤه: كالروح، والعرش، والكرسي، والجنة، والنار، واللوح والقلم، وعجب الذنب، وأجسام الشهداء، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وبأن معنى فانٍ وهالك أنه قابل لذلك، وكل ممكن قابل للفناء حتى في حال وجوده.

واعلم أن ما يقال عن استحضار الأرواح بالطرق المعروفة الآن كله كذب لا حقيقة له، وإن كنا نعتقد أن الأرواح باقية بعد الموت- وهو المختار عند المحققين من العلماء- وأن لأرواح أهل الصفاء والكمال تصرفاً وجولاناً.

في الملك والملكوت في حياتهم وبعد وفاتهم، وأنها تحضر كثيراً في مجالس العلم والذكر متشكلة بما شاء الله تعالى من الصور، لأنها علوية ملكية لا تحجبها الحواجز، ولا تبعد عليها المسافات..لكن لا بهذه الطرق الشائعة اليوم التي لا يقرها نقل صحيح، ولا عقل سليم، وغاية ما يمكن أن يصدق في هذا الباب أن الشيطانين – وهم القرناء الذين كانوا مقيضين لبني آدم في حال حياتهم- كما

---

(1) سورة الرحمن الآية ٢٦

(2) سورة القصص الآية ٨٨

ورد في الكتاب والسنة- هم الذين يحضرون هذه المجالس الهزلية، ويتحدثون بتلك الأحاديث المفتعلة المفتراة، ويتلاعبون بعقول السذج البسطاء.

متى خلقت الأجسام والأرواح؟

أما الأجسام فأول جسم منها هو جسم سيدنا "آدم" عليه الصلاة والسلام، أبي البشر فقد خلق- كما ورد في السنة الصحيحة- في آخر ساعة من يوم الجمعة بعد ما خلق الله تعالى العرش والماء والسموات والأرض.

وأما باقي الأجسام فكما هو معلوم كل جسم منها خلق في وقته عند تكوينه في بطن أمه.

وأما الأرواح فالذي عليه جمهور العلماء أنها خلقت قبل الأجسام، خلقت كلها دفعة واحدة، ويدل عليه قوله عز وجل "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آَدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى"[1] إذ من المعلوم أن هذا الخطاب والاستشهاد إنما كان للأرواح لأنها هي المخاطبة المكلفة لأن الأجسام لم تكن حينئذ موجودة.

وقال بعضهم: إنها تحدث مع البدن لقوله تعالى بعد تعدد أطوار البدن: "ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آَخَرَ" بناء على أن المراد من هذا الإنشاء هو خلق الروح وإفاضتها على البدن.

والجمهور يقولون: إن المراد من هذا الإنشاء نفخ الروح في البدن وجعلها متعلقة به، وهذا لا ينافي أنها كانت موجودة قبل ذلك، ثم إن الله تعالى بعد أن يجمع كل روح وجسدها مدة الحياة الدنيا يفرق بينهما الموت، فتبقى الروح حية عالمة مدركة كما كانت قبل حلولها في البدن، ثم ترتبط بالبدن وتعود إليه في القبر

---

[1] سورة الأعراف الآية ١٧٢

على وجه يعلمه الله تعالى، ثم بعد ذلك يجتمعان عند قيام الساعة للبعث والحساب، ثم إلى جنة أو نار.

وإن إلى ربك المنتهى.

ومن هنا يعلم أن الإنسان ذو أطوار ومنازل، وله بداية ونهاية.

أخرج الله تعالى الأب الأول سيدنا "آدم " صلوات الله وسلامه عليه من التراب والطين، وأخرج ذريته من ماء دافق يخرج من الأصلاب إلى الأرحام، ومن الأرحام إلى الدنيا، ومنها إلى القبر، ومن القبر إلى الحشر والعرض، ومن ذلك إلى النعيم المقيم أو العذاب الأليم فريق فى الجنة وفريق في السعير، كما ورد في الحديث الشريف: "خلقت هؤلاء للجنة ولا أبالي، وبعمل أهل الجنة ما يعملون، وخلقت هؤلاء للنار ولا أبالي وبعمل أهل النار يعملون" فمن كان من أهل الجنة والسعادة في علم الله تعالى وفقه لعمل الجنة وأسباب السعادة والعكس بالعكس.

وليس للإنسان اختيار في هذه الأطوار. فهو يتقلب فيها بمشيئة الله عز وجل وإرادته وحكمته، لا يقدر على بقائه ماء في صلب أبيه، كما لا يقدر أن يبقى جنينًا في بطن أمه، ولا أن يبقى في الدنيا بلا موت، ولا أن يبقى في القبر بلا بعث ولا حساب، فإن الله تعالى مرجعه ومنتهاه شاء أم أبى.

كما أنه لا اختيار له في أصل التكليف بمعنى أنه لم يؤخذ رأيه ولم يستشر في أنه يكلف أم لا، نعم هو مستعد بفطرته، وبما وهب له من القوى والأسباب لهذا التكليف وهو معنى قوله تعالى: "فحملها الإنسان" يعنى أمانة التكليف أي استعد لها وفيه قابلية لحملها وأدائها. فالاختيار الذي أعطاه الله تعالى للإنسان محصور في سلوك أحد طريقي السعادة والشقاء.

ولهذا لم يرتب الله عز وجل الثواب والعقاب إلا على ذلك فقط.

فلا ثواب للإنسان على وجوده في الدنيا، ولا على حلوله في قبره، وإنما ثوابه على الأعمال التي يعملها باختياره في هذه الحياة الدنيا.

قال عليه الصلاة والسلام: "أتاني جبريل فقال: يا مُحَمَّد أحبب ما شئت فأنت مفارقه، وعش ما شئت فأنت ميت، واعمل ما شئت فأنت مجزى به، واعلم أن شرف المؤمن في قيام الليل، وعزه في استغنائه عن الناس".

رتب الجزاء على العمل لأنه محل القصد والاختيار.

ما يطلق عليه اسم الإنسان.

ويطلق اسم الإنسان في لسان الشرع على الجسم تارة ومنه قوله تعالى: "فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ"(١) فإن المخلوق من الماء الدافق هو الجسم وحده، وعلى النفس أي الروح تارة أخرى ومنه قوله عز وجل: "إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا"[٢] فإن الهلع والجزع من صفات الروح لا من صفات الجسم، كما يطلق عليهما معاً فإنك تقول في الحي هذا إنسان، وهو مشتمل على الجسم والروح ومنه قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا"[٣] والكادح هو الشخص الحي المشتمل على الجسم والروح.

ويرى غير واحد من المحققين أن إطلاق اسم الإنسان على الروح هو الإطلاق الحقيقي، وأن الهيكل المحسوس يسمى إنسانًا على سبيل المجاز، كما

---

[١] سورة الطارق الآيتان ٥ و٦,

[٢] سورة المعارج الآيات ١٩-٢١

[٣] سورة الانشقاق الآية ٦

يسمى ضوء الشمس شمساً مجازاً، فالهيكل المحسوس شبح وظل للإنسان الحقيقي الذي هو الروح المقر بالربوبية المستعد لإدراك الحقائق.

العلاقة بين الجسم والروح

والعلاقة بين الجسم والروح– وإن شئت قلت بين الجسم والقلب، فالقلب والروح هنا شيء واحد– علاقة وثيقة، والرابطة التي بينهما رابطة قوية عجيبة لا نعلم سرها وكيفيتهما، وإنما الذي نعلمه وندركه أن كلاً منهما يتأثر بالآخر، فأفعال الجوارح تصدر عن الخواطر والعلوم والإرادات التي في القلب ولهذا كان في الحقيقة هو المدبر لها، والمسيطر عليها، كما أن أفعال الجوارح تنعكس منها آثار على ما في القلب تزيده قوة وثباتًا، فكأن القلب نهر يفيض على الجوارح، والجوارح جداول نصب في القلب.

ألا ترى أن الإنسان إذا تخيل الشيء الحامض ضرس منه، وإذا تخيل حالة مكروهة وغضب سخن بدنه، فهذه آثار تنزلت من الروح إلى البدن، وإذا واظب الإنسان على عمل من الأعمال وكرره مرات عديدة حصلت ملكة قوية راسخة في جوهر الروح، فهذه آثار صعدت من البدن إلى الروح.

فالعلاقة إذاً بين الروح والجسم، وظاهر الإنسان وباطنه علاقة متينة وإن كان سرها خفياً، حتى جعلت بعض الناس يظن الاتحاد بين عالم الأرواح وعالم الأجسام.

وجعلت البعض الآخر يظن أنه لا شيء وراء هذه الأجسام المحسوسة، فأنكر المعقولات والمعنويات رأساً.

والعاقل الكامل من صدق بالعالمين، وتفطن إلى لطف ما بينهما من العلاقة والارتباط، كما قال الشاعر:

رق الزجـــاج وراقـــت الخمـــر وتشـــابها فتشـــاكل الأمـــر
فكأنمـــا خمـــر ولا قـــدح وكأنمـــا قـــدح ولا خمـــر

غذاء الجسم وغذاء الروح

وإن كان الجسم يتغذى بالطعام والشراب، ويعيش بذلك، فإن الروح غذاؤها العلم والمعرفة وعيشها محبة الله تعالى وطاعته، والتضرع بين يديه. الجسم مخلوق من الطين فهو يميل إلى الشهوة، والروح مخلوقة من النور فهي تميل إلى المعارف والحقائق.. الروح أجنبية عن هذا العالم المحسوس فلا تحتاج إلى شيء منه، لا تحتاج إلى طعام وشراب ولا يلحقها جوع ولا عطش ولا حر ولا برد، ولا تفتقر إلى تعليم بل هي تعرف حقائق الأشياء ما هي عليه، بلا معلم سوى الله تعالى العليم الحكيم، وهي تميز عواقب الأمور تميزاً كاملاً، وكل لذتها وراحتها في مشاهدة جمال الربوبية وكمالها.

وإن كان من مرض قلبه وغلبت عليه الشهوات البهيمية لا يشعر بذلك ولا يحس به، ولا يمكن إقناعه بوجوده لأنه أمر باطني يدرك بالوجدان ولا يقتنص بالأدلة والبراهين: كجوع الجائع وعطش العطشان، ومثل المنكر مثل من استعمل مخدراً في جسمه أفقده الشعور والإحساس ولكن إذا هدأت أحكام البهيمية بحدوث موت اضطراري وهو الموت المعروف أو موت اختياري وهو الرياضات التي يستعملها أهل السلوك أو وقع الإنسان في كرب وشدة أدرك ذلك الميل وشعر به، كمن زال عنه المخدر فعاد إليه إحساسه وشعوره.

الجهاز الروحي أو القوى الإنسانية

أمد الله تعالى الإنسان في ظاهره وباطنه بقوى وآلات يستعين بها على حياته ويتزود بواسطتها لمعاده، ويستعد لتحصيل الكمال علماً وعملاً.

قال الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره ما حاصله: إن الله تعالى خلع على الإنسان أربع خلع الوجود الذي ميزه به عن سائر المعدومات، والحياة التي ميزه بها عن الجمادات، والقدرة التي مكنه بها من جلب الملائم الموافق، ودفع المنافي الضار، والعقل الذي ميزه به عن سائر الحيوانات وهو الذي شرفه الله تعالى بقوله (في الحديث القدسي): "بك أكرم وبك أهين، وبك أثيب وبك أعاقب" وهو الممنوح للإنسان آخرًا، فلذا كان أفضل الخلع، كما أن سيدنا مُحَمَّداً ﷺ خاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهو أفضلهم.

وهذا العقل كجفنة مملوءة بالجواهر النفيسة، بل كسماء مملوءة بالكواكب الزاهرة وهي العلوم الضرورية البديهية المركوزة فى بدائة العقول وصرائح الأذهان، وكما أن الكواكب المركوزة في السموات علامات يهتدى بها في ظلمات البر والبحر فكذلك الجواهر المركوزة في سماء العقل كواكب زاهرة يهتدي بها السائرون.. ثم على جميع هذه الجواهر المركوزة في سماء العقل وفي السماء الحقيقة رقم الحدوث ينادي بأن للجميع صانعاً حكيماً..

وقالت الحكماء إن الله تعالى خص الإنسان بقوى ظاهرة تشاهد بالأبصار وهي الأعضاء والجوارح والحواس الخمس: العين– الأذن – الذوق– اللمس– الشم. وقوى باطنة تشاهد بالبصائر وهي ثلاث: القوة العقلية وتسمى القوة الملكية والقوة الناطقة، وشأنها إدراك الحقائق ومعرفة الأمور الغيبية التي لا مجال فيها للحواس الظاهرة، والقوة الشهوانية أو البهيمية ووظيفتها جلب المنافع، وطلب الملاذ من المآكل والمشارب والملابس، والقوة الغضبية أو السبعية، وهي منشأ الإقدام على الأهوال والشوق إلى التسلط والترفع.

والمقصود من هاتين القوتين الأخيرتين حفظ الحياة وبقاء البدن الذي هو مطية الروح ومركبها لتصل بها إلى كمالها اللائق بها وتستعين به على السفر

الذى خلقت لأجله وهو السفر إلى الله تعالى وقطع المنازل إلى لقائه، فلأجله خلقت الأرواح قال تعالى: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ"[١] إذ لو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان، ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل، ولو انعدم الغضب لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ولما استطاع التغلب على المصاعب ومشاق الحياة، ولا أمكنه القيام بالتكاليف الدينية.

كما أن المقصود من القوة العقلية معرفة حقائق الأمور والتمييز بين المصالح والمفاسد وسياسة الشهوة والغضب على مقتضى الحكمة والشرع.

وعبر العلامة الدهلوي في كتابه "حجة الله البالغة" عن هذه القوى الثلاث بعبارة أخرى لا تختلف في معناها ومقصودها عن عبارة الحكماء حيث قال ما خلاصته إن في الإنسان ثلاث لطائف: العقل الذى يدرك به الإنسان ما لا يدركه بالحواس ومقتضاه البحث عن علل الحوادث ومعرفة الأسباب لكل ما يحدث من نعمة ونقمة، والتصديق بأمور يرد عليها مناسباتها والتفكير في الحيل التي تجلب المنافع وتدفع المضار، والقلب وهو الشيء الذي به يحب الإنسان ويبغض ويخاف ويرجو ويختار ويعزم، والنفس التي من صفاتها أنها تشتهي ما يستلذ من المطاعم والمشارب والمناكح... قال: ثم إن فعل كل واحد من هذه الثلاثة لا يتم إلا بمعونة من الآخرين.. فلولا إدراك ما في الشتم، والكلام الحسن من القبح والحسن وتوهم الضر والنفع ما هاج غضب ولاحب، ولولا متانة القلب لم يصر المتصور مصدقاً به، ولولا معرفة المطاعم ونحوها وتوهم المنافع فيها لم يمل إليها الطبع، ولولا تنفيذ القلب حكمه في أعماق البدن لم يسع الإنسان في تحصيل مستلذاته، ولولا خدمة الحواس للعقل ما أدركنا شيئًا فإن الكسبيات فرع البديهيات، والبديهيات فرع المحسوسات..

---

[١] سورة الذاريات الآية ٥٦

والإنسان هو مجموع ذلك كله، وهو إنسان واحد وجملته مسخر بعضها لبعض، اختصت كل لطيفة من هذه اللطائف بوظيفة ولكنها فطرت على معاونة بعضها لبعض، وكما يصح أن يكون البصر محل الرؤية، والأذن محل السمع، والأنف محل الشم والفم محل التذوق، والسميع والبصير والشام والذائق إنما هو الجملة التي هي الإنسان، فكذلك الإنسان في لطائف المعنوية.

مراتب الإدراك

واعلم أن الإنسان في نشأته الروحية والعلمية ذو أطوار ومنازل كما هو الحال في نشأته الظاهرة، فكما يكون أولاً نطفة ثم علقة ثم جنيناً ثم طفلاً ثم شاباً ثم شيخاً، كذلك يخلق في أول أمره خالياً من العلم كما قال تعالى: "وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"[١]

ثم يخلق الله تعالى فيه الحواس من السمع والبصر والذوق والشم واللمس فيدرك بها الموجودات الحسية.. يدرك ببصره الألوان والأشكال، وبسمعه الأصوات والنغمات، وبذوقه الطعوم من الحلاوة والمرارة وبشمه الروائح وبلمسه الحرارة والبرودة.

ثم يخلق الله فيه التمييز وهو طور آخر من أطواره المعنوية الروحية فيدرك به أموراً زائدة عن العوالم الحسية ثم يخلق له العقل وهو مبدأ العلوم والمعارف الحقيقية التي يتميز بها الإنسان عن بقية الحيوانات.

والعلوم التي تحصل في العقل تنقسم إلى قسمين:

ضرورية يجد الإنسان نفسه مفطوراً عليها ولا يدري متى حصلت ولا كيف

---

[١] سورة النحل آية ٧٨

حصلت، كالعلم بأن حدوث حادث بلا سبب محال، وكالعلم بأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين، وأن الشيء الواحد لا يكون موجوداً ومعدوماً، ولا قديماً ولا حادثاً معاً.

ومكتسبة وهي المستفادة بالتجارب والنظر والاستدلال، وهذه هي غاية درجة الإنسانية في العادة والناس فيها متفاوتون إذ منهم الذكي قوي العقل سريع الفهم كما قال الله تعالى: "يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ"(١) ومنهم الغبي جامد الطبع بطيء الفهم، ووراء ذلك درجات الملهمين من أولياء الله تعالى، وفوقهم درجات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

قال ابن خلدون في مقدمة تاريخه: النفوس البشرية على ثلاثة أصناف: صنف عاجز بالطبع عن الإدراك الروحاني فينقطع بالحركة إلى الجهة السفلى نحو المدارك الحسية والخيالية وتركيب المعاني من الحافظة والواهمة على قوانين محصورة وترتيب خاص- يعني بهذا الترتيب كتقديم الصغرى على الكبرى في الشكل الأول مثلاً- يستفيدون به العلوم التصورية والتصديقية التي للفكر في البدن وكلها خيالي منحصر نطاقه إذ هو من جهة مبدئة ينتهي إلى الأوليات- العلوم الأولية الضرورية- ولا يتجاوزها وإن فسد فسد ما بعده وهذا في الأغلب نطاق الإدراك البشري الجسماني وإليه تنتهي مدارك العلماء وفيه ترسخ أقدامهم.

وصنف متوجه بتلك الحركة الفكرية نحو العقل الروحاني والإدراك الذي لا يفتقر إلى الآلات البدنية لما جعل فيه من الاستعداد لذلك، فيتسع نطاق إدراكه من الأوليات التي هي نطاق الإدراك الأول البشري، ويسرح في فضاء المشاهدات الباطنية وهي وجدان كلها لا نطاق لها من مبدئها ولا من منتهاها،

(١) سورة النور آية ٣٥

وهذه مدارك العلماء الأولياء أهل العلوم اللدنية والمعارف الربانية، وهي الحاصلة بعد الموت لأهل السعادة في البرزخ.

وصنف مفطور على الانسلاخ من البشرية جملة: جسمانيتها وروحانيتها إلى الملائكة من الأفق الأعلى ليصير في لمحة من اللمحات ملكاً بالفعل ويحصل له شهود الملأ الأعلى في أفقهم وسماع الكلام النفساني- كلام الله سبحانه وتعالى- والخطاب الإلهي في تلك اللمحة، وهؤلاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جعل الله تعالى لهم الانسلاخ من البشرية في تلك اللمحة وهي حالة الوحي فطرة فطرهم الله عليها وجبلة صورهم الله عز وجل فيها ونزههم عن موانع البدن وعوائقه ما داموا ملابسين لها بالبشرية الظاهر أن معناه نزههم عن موانع البدن وعوائقه مع كونهم متصفين بالبشرية- فالنبي في اتصاله بالغيب واجتماعه بالملائكة وسماعه الخطاب الإلهي لا يخرج عن بشريته- بما ركب في غرائزهم من القصد والاستقامة، وركز في طباعهم من الرغبة في العبادة بكشف لا باكتساب ولا رياضة.

قلت: وترك ابن خلدون صنفاً رابعاً وهم الذين قصروا نظرهم على المحسوسات وحبسوا أنفسهم في مضيق الماديات لأن هؤلاء في الحقيقة ليسوا من البشر ولا من النوع الإنساني بل من الحيوانات لأن ميزة الإنسان التي اختص بها هي العقل والتفكير بواسطته والتصديق بما وراء المادة والحس.

معدن الحكمة والعلم.

فانظر كيف كرم الله تعالى الآدمي، كما قال عزوجل: "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ"[1] وكيف سوى نفسه كما قال: "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا"[2] حيث أعطاه القوى

---

[1] سورة الإسراء الآية: ٧٠

[2] سورة الشمس الآية: ٧

الظاهرة والباطنة وحدد لكل قوة وظيفتها وهيأ له العقل الذي يدرك به حقائق الأشياء ويقدر به على اكتساب العلوم النظرية، وبهذا صار الإنسان معدن الحكمة والعلم، حتى قال الحكماء :"إن التعليم لا يجلب للإنسان شيئاً من الخارج وإنما يكشف عن الموجود".. ومعناه أن العلوم كلها مركوزة في فطرته مضمنة في عقله: الضروري منها حاصل له فعلاً بتعليم الله تعالى وإلهامه من غير كسب ولا طلب، والنظري موجود بالقوة كالنار في الزناد، والماء في الأرض، والنخل في النوى، وإنما يصير حاصلاً بالفعل ويظهر في الوجود إذا جرى سبب يخرجه إلى الوجود وهو التأمل والتفكر الذي هو الخصوصية التي امتاز بها الإنسان ولا يستطيع الصبر عنها بحال.

قال ابن خلدون: "إن الإنسان قد شاركته جميع الحيوانات في حيوانيته من الحس والحركة والغذاء والكن – المسكن – وغير ذلك وإنما تميز عنها بالفكر الذي يهتدي به لتحصيل معاشه والتعاون عليه بأبناء جنسه والاجتماع المهيئ لذلك التعاون وقبول ما جاءت به الأنبياء عن الله تعالى والعمل به واتباع صلاح أخراه، فهو مفكر في ذلك كله دائماً لا يفتر عن الفكر فيه طرفة عين بل اختلاج الفكر أسرع من لمح البصر. وعن هذا الفكر تنشأ العلوم وما قدمناه من الصنائع، ثم لأجل هذا الفكر وما جبل عليه الإنسان بل الحيوان من تحصيل ما تستدعيه الطباع فيكون الفكر راغباً في تحصيل ما ليس عنده من الإدراكات فيرجع إلى من سبقه بعلم، أو زاد عليه بمعرفة أو إدراك أو أخذه ممن تقدمه من الأنبياء الذين يبلغونه لمن تلقاه فيلقن ذلك عنهم ويحرص على أخذه وعلمه ثم إن فكره ونظره يتوجه إلى واحد واحد من الحقائق وينظر ما يعرض له لذاته واحداً بعد آخر، ويتمرن على ذلك حتى يصير إلحاق العوارض بتلك الحقيقة ملكة له فيكون حينئذ علمه بما يعرض لتلك الحقيقة علماً مخصوصاً وتتشوق

نفوس أهل الجيل الناشئ، إلى تحصيل ذلك فيفزعون إلى أهل معرفته ويجئ التعليم من هذا"

واعلم أن كل آدمي فهو صالح بفطرته وأصل جبلته للإدراك ومعرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه وإنما يعوقه أسباب طارئة.

قال العارف البنا في منظومته المسماة "بالمباحث الأصلية" في التصوف:

وهـــــذه الحقيقـــــة النفســـــية	موصـــولة بالحضـــرة القدســـية
وإنمـــــا يعوقهـــــا الموضـــــوع	ومـــن هنـــا يبتـــدأ الطلـــوع
فلــم تــزل كــل النفــوس الأحيــا	علامــــــة دراكــــــة للأشــــــيا
وإنمـــــا تعوقهـــــا الأبـــــدان	والأنفـــس النـــزع والشـــيطان
فكـــل مـــن أذاقهـــم جهـــاده	أظهـــر للقاعـــد خـــرق العـــادة

ومثل الإمام الغزالي في "الإحياء" قلب الإنسان بالمرآة قال: وكما أن المرآه لا تنكشف فيها الصور لخمسة أمور أحدها نقصان صورتها كجوهر الحديد قبل أن يدور وبشكل ويصقل، والثاني لخبثه وصدئه وكدورته وإن كان تام الشكل، والثالث لكونه معدولاً به عن جهة الصورة إلى غيرها كما إذا كانت الصورة وراء المرآة، والرابع لحجاب مرسل بين المرآه والصورة، والخامس للجهل بالجهة التي فيها الصورة المطلوبة حتى يتعذر بسببه أن يحاذي بها شطر الصورة وجهتها. وكذلك القلب مرآة مستعدة لأن ينجلي فيها حقيقة الحق في الأمور كلها وإنما خلت القلوب عن العلوم التي خلت عنها لهذه الأسباب الخمسة :نقصان في ذاته كقلب الصبى فإنه لا ينجلي له المعلومات لنقصانه، والثاني لكدورة المعاصي والخبث الذى يتراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات فإن ذلك يمنع صفاء القلب وجلاءه، فيمتنع ظهور الحق فيه لظلمته وإليه الإشارة بقوله

ﷺ: "من قارف ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبداً"، الثالث أن يكون معدولاً به عن جهة الحقيقة المطلوبة فإن قلب المطيع الصالح وإن كان صافياً فإنه ليس يتضح فيه جلبة الحق لأنه ليس يطلب الحق- يعنى المعرفة الخاصة عند الصوفية- وليس محاذياً بمرآته شطر المطلوب بل ربما يكون مستوعب الهم بتفصيل الطاعات البدنية، أو بتهيئة أسباب المعيشة، ولا يصرف فكره إلى التأمل في حضرة الربوبية، والحقائق الخفية الإلهية، فلا ينكشف له إلا ما هو متفكر فيه من دقائق آفات الأعمال وخفايا عيوب النفس إن كان متفكرًا فيها أو مصالح المعيشة إن كان متفكراً فيها. وإذا كان تقييد الهم بالأعمال وتفصيل الطاعات مانعاً من انكشاف جلية الحق فما ظنك بمن صرف الهم إلى الشهوات الدنيوية ولذاتها وعلائقها فكيف لا يمنع عن الكشف الحقيقي، الرابع الحجاب فإن المطيع القاهر لشهواته المتجرد الفكر في حقيقة من الحقائق قد لا ينكشف له ذلك لكونه محجوبًا عنه باعتقاد سبق إليه منذ الصبا على سبيل التقليد والقبول بحسن الظن فإن ذلك يحول بينه وبين حقيقة الحق، ويمنع من أن ينكشف في قلبه خلاف ما تلقفه من ظاهر التقليد، وهذا أيضًا حجاب عظيم حجب به أكثر المتكلمين والمتعصبين للمذاهب، بل أكثر الصالحين المتفكرين في ملكوت السموات والأرض لأنهم محجوبون باعتقادات تقليدية جمدت في نفوسهم ورسخت في قلوبهم وصارت حجاباً بينهم وبين درك الحقائق، الخامس الجهل بالجهة التي يقع منها العثور على المطلوب فإن طالب العلم ليس يمكنه أن يحصل العلم بالمجهول إلا بالتذكر للعلوم التي تناسب مطلوبة إذا تذكرها ورتبها في نفسه ترتيباً مخصوصاً يعرفه العلماء بطرق الاعتبار فعند ذلك يكون قد عثر على جهة المطلوب، فتتجلي حقيقة المطلوب لقلبه فإن العلوم المطلوبة التي ليست فطرية لا تقتنص إلا بشبكة العلوم الحاصلة.. انتهى باختصار.

والإيمان والتوحيد

وعلى هذا فكل آدمي مفطور على الإيمان والتوحيد، ومعرفة الله تعالى وفى هذا يقول الله عز وجل: "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آَدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى"(١)

ويقول تبارك وتعالى: "فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ"(٢)

ويقول سبحانه: "إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا"(٣)

وقال ﷺ "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهتودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون بها من جدعاء" أخرجه الشيخان البخاري ومسلم وغيرهما.

وفى الحديث عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما "قيل لرسول الله ﷺ: أين الله، في الأرض أو في السماء؟ فقال: في قلوب عباده المؤمنين"

وفي الخبر القدسي "لم يسعني أرضي ولا سمائي، ووسعني قلب عبدي المؤمن اللين الوادع" –أي وسع توحيده ومعرفته عز وجل لأوسع ذاته العلية جل الله عن الحلول والاتحاد.

والمعنى في هذه الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة أن الإنسان ممكن من المعرفة مستعد للإيمان والتوحيد استعدادًا قريباً، قادر على تحصيله متى أراد الله

---

(١) الأعراف: الآية ١٧٢

(٢) سورة الروم الآية ٣٠

(٣) سورة الأحزاب الآية ٧٢

تعالى له ذلك وساعده بهدايته وتوفيقه، وما تشاءون إلا أن يشاء الله، ويرى الصوفية وكثير من المحققين أن الله تعالى لما خلق الأرواح قبل الأجسام كشف لها حقائق الأمور، وخلق لها معرفته وتوحيده وجعلها عالمة بالفعل. ثم أشهدها على أنفسها وأخذ ميثاقها على ذلك، لكن لما حلت في الأبدان واشتبكت بها وتنقلت في الأطوار المختلفة تراكمت عليها الظلمات وحجبت بعالم الشهادة عن عالم الغيب وانشغلت بتدبير البدن وشهواته فنسيت ذلك الإقرار والميثاق وجعلت بعد علمها ولذلك بعث الله تعالى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مطالبين بهذا الميثاق مذكرين به "وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ"[١]

فحقائق المعارف منطبعة في الأرواح من يوم الميثاق فلذلك قامت بها الحجة فيما لا يزال.

ومن هنا لم يحرص الصوفية على تحصيل المعارف بكثرة البحث ومعاناة الأدلة بل قالوا إن الطريق إلى اكتساب المعارف- بعد تحقيق الأصول ومعرفة القواعد الأساسية وما لابد منه من معرفة الأحكام العملية- تقديم المجاهدة ومحو صفات القلب المذمومة وقطع العلائق الشاغلة والإقبال بكنة الهمة على الله تعالى.

وسواء كان هذا أو ذاك فمما لا شك فيه أن الإيمان مركوز في النفوس موجود فيها، بالقوة من أجال خاطرة في نفسه واستعمال عقله تذكر وآمن، فكان كمن حمل شهادة فنسيها بالغفلة ثم تذكرها، ولذلك قال الله تعالى في مواضع من كتابه العزيز: "لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ"

[١] سورة الحديد الآية ٨

"وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ"[١]

"وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ"[٢]

"وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ"[٣]

قال الإمام الغزالي: "تسمية هذا النوع تذكراً ليس ببعيد فكأن التذكر ضربان: أحدهما أن يتذكر صورة حاضرة الوجود في قلبه لكن غابت بعد الوجود، والآخر أن يتذكر صورة كانت مضمنة فيه بالفطرة، وهذه حقائق ظاهرة للناظر بنور البصيرة ثقيلة على من مستروحه السماع والتقليد دون الكشف والعيان، ولذلك نراه يتخبط في تأويل التذكر وإقرار النفوس أنواعاً من التعسفات ويتخايل إليه في الأخبار والآيات ضروب من المتناقضات وربما يغلب ذلك عليه حتى ينظر إليه بعين الاستحقار، ويعتقد فيه التهافت ومثاله مثال الأعمى الذى يدخل داراً فيعثر فيها بالأواني المصفوفة في الدار فيقول ما لهذه الأواني لا ترفع من الطريق وترد إلى مواضعها فيقال: إنها في مواضعها وإنما الخلل في بصرك، فكذلك خلل البصيرة يجرى مجراه وأطم منه وأعظم".

مجمع العجائب

فظهر أن الإنسان كما يقول الحكماء، مجمع العجائب ومحل الغرائب، فهو معدن العقل والحكمة والتدبر والاعتبار، كما أنه مركز الشهوة والحمية والهوى.

فيه الروح الصافية المقرة بالربوبية والتوحيد، الداعية إلى الحق والخير، وفيه النفس الإمارة بالسوء، العازمة للباطل والشر.

---

[١] سورة إبراهيم الآية ٥٢

[٢] سورة المائدة الآية ٧.

[٣] سورة القمر الآية ١٧.

روى ابن عبد البر في التمهيد "أن الله تعالى خلق آدم وجعل فيه نفساً وروحاً فمن الروح عفافه وفهمه وحلمه وسخاؤه ووفائه، ومن النفس شهوته وطيشه".

والمراد – والله اعلم – أن النوع الآدمي فيه جميع ذلك، ومن استقرأ أحوال الناس، رأى العجب العجاب وشاهد من تفاوتهم وتباين أحوالهم ما يكاد يبلغ حد التناقض، فمنهم من تقوى روحه وتغلب ملكيته فيرتقي درجة الكمال حتى يصل إلى أعلى عليين، ومنهم من تقوى نفسه وتغلب عليه بهيميته فينحدر في الضلال ويرتطم في أحوال الرذائل حتى ينحط إلى أسفل سافلين ويكون شرًا من الدواب "إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ"(١) وهؤلاء هم قبضة جهنم وسكان الجحيم. "وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ"(٢)

منهم من يكون عقله هو القاهر لقلبه ونفسه، كالراجل الذي تمكنت منه عقيدة خاصة حتى فنيت فيها نفسه، وامتلأ بها قلبه، وكما هو شأن المؤمن حق الإيمان، الذي غلبت لذة اليقين على عقله فانقلب حبه وبغضه وشهوته، إلى ما يأمر به الشرع فلا يبغى عن حكم الشرع بديلاً.

ومنهم من إذا أصابه غضب، أو هاج في قلبه طلب منصب عظيم يستهين في جنبه باللذات، وربما تعرض لمثل هذا شهوة وتدعوه إليها نفسه أشد دعوة فيجاهد نفسه مجاهدة عظيمة ولا يطيعها فيما دعته إليه، وربما يصبر على الجوع والعزى لا يسأل أحداً شيئاً لما جبل عليه من الأنفة والعزة.

---

(١) سورة الأنفال الآية: ٢٢

(٢) سورة الأعراف: آية ١٧٩.

ومنهم من تكون نفسه هي القاهرة على عقله فإذا عرضت له شهوة اقتحم فيها وإن كان ألف عار، ولا يلتفت إلى من يرغب فيه كبار الهمم من المناصب العالية والمنازل الرفيعة، ولا يخشى ما يصيبه من المذلة والعار. وربما يبدو لهذا الإنسان مطعم هنى أو تسنح له شهوة جنسية يعلم أن فيها مضرة من جهة الطب أو جهة سطوة بعض الناس فيخاف ويرتعش ثم يصيبه الهوى فيقتحم في داعية النفس وينسى عواقب ما تجني يداه.

بل الشخص الواحد ربما يتقلب قلبه وتختلف أحواله بين حين وحين كما قال حذيفة ﷺ "يأتي على القلب ساعة يمتلئ بالإيمان حتى لا يكون للنفاق فيه مغرز إبرة، ويأتي عليه ساعة يمتلئ بالنفاق حتى لا يكون للإيمان فيه مغرز إبرة".

ومن كلام الإمام علي رضي الله تعالى عنه "لقد علق بنياط هذا الإنسان بضعة هي أعجب منه وذلك القلب. وله مواد من الحكمة وأضداد من خلافها فإن سنح له الرجاء أذله الطمع. وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص. وإن ملكه اليأس قتله الأسف. وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ. وإن أسعده الرضا نسي التحفظ. وإن ناله الخوف شغله الحذر. وإن اتسع له الأمن استلبته العزة. وإن أفاد مالاً أطغاه الغنى. وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع. وإن عضته الفاقة شغله البلاء. وإن جهده الجوع قعد به الضعف. وإن أفرط به الشبع كظته البطنة. فكل تقصير له مضر. وكل إفراط له مفسد.."

وقد أشار لذلك كله رسول الله ﷺ حيث يقول فيما أخرجه البخاري في صحيحه: "الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا" قال القرافي في الفروق يعنى أن الناس مختلفون في سجاياهم وخلقهم، وطبائع نفوسهم وأمزجتهم.

فمنهم الجبان للغاية. والشجاع للغاية، ومنهم بين بين، وكذلك في الشر

والخير والكرم والبخل والفهم وقياس الغائب على الشاهد، والحدس والتخمين، والتأثير بالهمة في الغير. كما أن المعادن مختلفة في جواهرها وأشكالها وخواصها، فأهل السجايا الكريمة والطباع الخيرية في الجاهلية هم كذلك في الإسلام إذا عرفوا الحق وعملوا به.

لمة الملك ولمة الشيطان

وقد جعل الله تعالى قلب الإنسان متجاذبًا بين شيطان يحرضه على الشر ويعده بالفقر ويأمره بالفحشاء، وملك يلهمه الخير ويدعوه إلى السداد قال ﷺ: "في القلب لمتان، لمة من الملك، إبعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله تعالى وليحمد الله عليه، ولمة من العدو – الشيطان – إبعاد بالشر، ونهي عن الحق، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم" رواه الترمذي والنسائي وابن حيان من رواية ابن مسعود رضي الله تعالى عنه.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: "ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الملائكة ومن الجن قالوا: "وإياك يا رسول الله قال: وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم" روى "أسلم" بصيغة المضارع أي فأسلم أنا من شره، وروي بصيغة الماضي ومعناه أنه استسلم وانقاد أو أسلم حقيقة أي دخل الإسلام.

وفي رواية زيادة "فلا يأمرني إلا بخير" أخرجه مسلم وعن الحسن رضي الله تعالى عنه " إنما هما همان يجولان في القلب، هم من الله تعالى، وهم من العدو، فرحم الله تعالى عبداً وقف على همه، فما كان من الله – ولا يكون إلا موافقاً للشرع– أمضاه، وما كان من عدوه جاهده".

نسخة الوجود

ومن هنا قيل إن الإنسان أنموذج الكون ونسخة الوجود من عرشه إلى فرشه، قد ركبه الله تعالى تركيبًا محسوساً ومعقولاً جمع فيه بين ظلماني كثيف وهو الجسم، ونوراني لطيف وهو الروح أودع فيه قوى ظاهرة وأخرى باطنة وخلط فيه العناصر الأربعة الماء، والتراب، والنار، والهواء.. وجعل فيه من صفات الملائكة العقل، والمعرفة، والعبادة. ومن صفات الشياطين الإغواء والتمرد والطغيان ومن صفات الحيوانات أنه في حالة الغضب يكون أسداً، وفى حالة غلبه الشهوة يكون خنزيراً لا يبالي أين يلقي نفسه، وفى حالة الحرص على الدنيا والشره يكون كلباً، وفى حالة الاحتيال والخداع يكون ذئباً.

ومن صفات النبات والأشجار أن يكون في مبدئه غضاً طرياً مترعرعاً وفى آخره يابساً أسود.. ومن صفات السماء أنه محل الأنوار.... ومجمع الملائكة ومن صفات الأرض أنه محل لنبات الأخلاق والطباع ومنه اللين والخشن، ويقال إن رأسه كالعرش وصدره كالكرسي وروحه كالشمس وعقله كالقمر- ويبدو في أوله صغيرًا ثم يكبر شيئاً فشيئاً حتى يكمل ثم يعود صغيراً إذا بلغ الإنسان أرذل العمر- وحواسه كالكواكب، و عضلاته كالأرض، وعظامه كالجبال، وعروقه المملوءة بالدم كالأنهار الجارية بالماء، وسوائله المختلفة الطعوم، ماء فمه العذب، وماء عينه الملح، وماء أذنه المر، كالمياه العذبة والملحة في الأرض، وشعره كالنبات المختلف الألوان، وقلبه خزانة سره.. ولسانه ترجمان عقله.. وعيناه حارستان، وأذناه مخبرتان.. ورجلاه مطيتان.. ويداه خادمتان.

فكأن العالم وجميع ما فيه علويه وسفلية شرح لمتن الإنسان، وكل ما في الإنسان يمثل جزءاً من العالم.

قال في المباحث الأصلية:

يا ســـابقاً في موكـــب الإبـــداع	ولاحقـــاً في جـــيش الاخـــتراع
أعقـــل فأنـــت نســـخة الوجـــود	لله مـــا أسمـــاك مـــن موجـــود
ألـــيس فيـــك العـــرش والكرســـي	والعـــالم العلـــوي والســـفلي
مـــا الكـــون إلا رجـــل كبـــير	وأنـــت كـــون مثلـــه صـــغير

يا جاهلاً من داره سكناها

حكى الشعراني في كتاب "الطبقات" له عن الحارث بن أسد المحاسبي قال عملت كتاباً في المعرفة وأعجبت به فبينما أنا ذات يوم أنظر فيه مستحسناً له إذ دخل علي شاب عليه ثياب رثة وقال لي: "يا أبا عبدالله المعرفة حق للحق على الخلق أم حق للخلق على الحق عزوجل؟ فقلت له: حق على الخلق للحق فقال هو أولى أن يكشفها لمستحقها فقلت بل حق للخلق على الحق فقال هو أعدل من أن يظلمهم ثم سلم علي وخرج فأخذت الكتاب وأحرقته وقلت لا عدت أتكلم في المعرفة بعد ذلك.

أقول: الصواب أن المعرفة حق الله تعالى على الخلق وهم مكلفون بتحصيلها ومخلوقون لأجلها قال تعالى: "فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ"(١) وقال عز وجل: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ"(٢)

فجواب المحاسبي الأول صحيح ولكن ما جرى بينه وبين الشاب المذكور، (والظاهر أنه من أولياء الله تعالى) كان الغرض منه التنبيه على أن المعرفة يسيرة ومؤنتها قليلة، وأن الله عز وجل قد مهد لعباده سبيلها وأوضح طريقها وجعل

(١) سورة محمد عليه الصلاة والسلام: الآية ١٩

(٢) سورة الذاريات: الآية ٥٦

أصولها مضمنة في الفطرة مركوزة في النفوس الإنسانية وما بعث رسله عليهم الصلاة والسلام إلا للتذكير بها والتنبيه على طريقة اكتسابها.

ومدار تحصيلها في الواقع على توفيق الله تعالى وهدايته فهو الذي يوقظ الإنسان وينبهه لمعالم فطرته على ما جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من قلبه" فليست المعرفة في حاجة إلى التكلف والتعمق في البحث والاستدلال وإنما حجب عنها من حجب بالغفلة، والانهماك في الحظوظ والشهوات.

قال في المباحث الأصلية:

يا جـــاهلاً مـــن داره ســـكناها وهـــو يـــؤدي أبـــدًا كراهـــا

لم تـدر مـن أنـت وكيـف تـدري وأنـت قـد عزلـت والي الفكـر

يقول رضي الله تعالى عنه: يا من يبحث في مناهج الأدلة ويجتهد في طلب المعرفة ويحمل نفسه المتاعب والمشاق المقصود بين يديك والحق منك قريب، وما حجبك عنه إلا حجاب الوهم، ولا ضرك إلا نسيانك لأصلك وفطرتك وطبيعة روحك التي وهبها الله تعالى لك وهي لطيفة نورانية ربانية تدبر بدنك وتستعمل جوارحك وتأخذ بيدك إلى حضرة الجمال والجلال. وكانت قبل حلولها في هذا البدن مقرة بالتوحيد، عارفة بربها معرفة كاملة مدركة لحقائق الأشياء على ما هي عليه. فلو نظرت إلى أصلك وعرفت حقيقة أمرك ولم تشغلك شواغل الدنيا وشهواتها لانكشف عنك الوهم ووجدت نفسك أمام المقصود واسترحت من كثرة البحث والاستدلال، وقد ضرب لذلك مثلاً بمن يسكن داراً هي له في الحقيقة وهو يظنها لغيره فيؤدي له كراءها جهلاً منه بحقيقة الواقع.

فكذلك الإنسان قبل الوصول إلى معرفة الله تعالى يظن أن المقصود منه

بعيد والوصول إليه عزيز فإذا انكشف الغطاء ووجد نفسه في الحضرة أيقن أنه قد كان يجاهد في غير عدو ويتعب من غير موجب للتعب كما قال القائل:

ومن عجب أني أحن إليهمو — وأسأل عنهم من لقيت وهم معي
وتطلبهم عيني وهم في سوادها — ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي

وقال آخر:

وكنا حسبنا أن ليلى تبرقعت — وأن حجاباً دونها يمنع اللثما
فلاحت فلا والله ما ثم حاجب — ولكن طرفي كان عن حسنها أعمى

وبين رحمة الله تعالى أن سبب الغفلة واصل البلية عزل والي الفكر يعني العقل لأنه يلي الفكر ويستعمله، فلما اشتغل بالحظوظ وانهمك في تدبير الحيل التي تقتنص بها الشهوات تعطل عن معرفة الله تعال، وغفل عما هو حاضر بين يديه، مائل بين عينيه.

معرفة النفس

فمعرفة النفس الإنسانية والوقوف على خصائصها من ألزم الأشياء. وأهم المهمات قال الإمام الحارث المحاسبي:

مجموع المعرفة يرجع إلى العلم بأربعة أشياء: الله تعالى، والنفس، والدنيا، والشيطان وقال الشيخ محيي الدين بن العربي: والذي نقول به أن المعرفة ليس لها طريق إلا المعرفة بالنفس.. وهذا حق فإن من لا يعرف نفسه لا يعرف الله تعالى ولا يعرف الدنيا ولا الآخرة ولا يعرف شيطاناً ولا ملكاً ولا نبياً، ولا شيئاً من الأشياء.

قال الله تعالى: "وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ"[1]

وفى الأثر المشهور "من عرف نفسه عرف ربه" أي من عرف معنى الإنسانية الحقة وما تتطلبه وما تشتاق إليه وما هي مستعدة له عرف ربه وعرف كل شيء، وأما من جهل نفسه فلا يعرف شيئاً، ولا يميز بين حق وباطل، ولا يفرق بين حسن وقبيح، وإنما يعرف ما تشاركه فيه البهائم، والحيوانات يعرف كيف يأكل، وكيف يشرب. وكيف يواقع زوجته، وكيف يقاتل غيره، وكيف يجمع المال، وكيف يغتصب حقوق الناس.

وقد يترقى قليلاً فيعرف كيف يطير في الهواء، وكيف يسبح في الماء، وكيف يحاول الوصول إلى الكواكب ومع ذلك كله فهو عن معرفة نفسه ومعرفة ربه تعالى بمعزل، فلا تخدعنك أيها الرجل القشور، ولا تعول على ظواهر الأمور.

قال الإمام أبو حامد الغزالي في كتاب "كيمياء السعادة" أعلم أن مفتاح معرفة الله تعالى هو معرفة النفس كما قال سبحانه وتعالى: "سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ"[2] وقال النبي ﷺ "من عرف نفسه فقد عرف ربه" وليس شيء أقرب إليك من نفسك فإذا لم تعرف نفسك فكيف تعرف ربك. فإن قلت: إني أعرف نفسي فإنما تعرف الجسم الظاهر الذي هو اليد والرجل والرأس والجثة ولا تعرف مما في باطنك إلا الأمر الذي به إذا غضبت طلبت الخصومة، وإذا اشتهيت طلبت النكاح، وإذا جعت طلبت الأكل، وإذا عطشت طلبت الشرب، والدواب تشاركك في هذه الأمور.

فالواجب عليك أن تعرف نفسك بالحقيقة حتى تدري أي شيء أنت. ومن أين جئت إلى هذا المكان، ولأي شيء خلقت.. وبأي شيء تكون

---

[1] سورة الذاريات الآية: ٢١

[2] سورة فصلت الآية: ٥٣

سعادتك.. وبأي شيء شقاؤك..؟ وقد جمعت في باطنك صفات منها صفات البهائم ومنها صفات السباع ومنها صفات الملائكة.

فالروح حقيقة جوهرك وغيرها غريب منك وعارية عندك. فالواجب عليك أن تعرف هذا، وتعرف أن لكل واحد من هؤلاء غذاء وسعادة.

إن سعادة البهائم في الأكل والشرب والنوم والوقاع. فإن كنت منهم فاجتهد في أعمال الجوف والفرج، وسعادة السباع في الضرب والفتك، وسعادة الشياطين في المكر والشر والحيل فإن كنت منهم فاشتغل بأشغالهم.

وسعادة الملائكة في مشاهدة جمال الحضرة الربانية وليس للغضب والشهوة إليهم طريق فإن كنت من جوهر الملائكة فاجتهد في معرفة أصلك حتى تعرف الطريق إلى الحضرة الإلهية وتبلغ مشاهدة الجمال والجلال وتخلص نفسك من قيد الشهوة والغضب وتعلم أن هذه الصفات لأي شيء ركبت فيك؟ فما خلقها الله لتكون أسيرها ولكن خلقها الله لتكون هي أسيرة لك وتسخرها للسفر الذي قدامك وتجعل إحداها مركبك والأخرى سلاحك حتى تصيد بها سعادتك فإذا بلغت غرضك فارم بها تحت قدميك، وارجع إلى مكان سعادتك وذلك المكان قرار خواص الحضرة الإلهية فتحتاج إلى معرفة هذه المعاني حتى تعرف من نفسك شئياً قليلاً فكل من لم يعرف هذه المعاني فنصيبه القشور لأن الحق يكون عنه محجوباً..

قلت: ولما لم يعرف الطبيعيون هذه المعاني التي أشار إليها أبو حامد..، وشغلوا بشهوات البهائم وتحصليها، وتعلقوا بالحواس ومداركها كان نصيبهم القشور، وحجبوا عن معرفة الله تعالى، لأن ذاته عز وجل لا نعرف في هذا العالم بالحواس، التي طلبوه من طريقها فلم يجدوه، ولو أنهم استعملوا في معرفته عز وجل العقول التي اختصهم سبحانه بها، ورفعهم بها من درجة الحيوانات لوجدوه

وعرفوه، فكفرهم بالله عز وجل، وجحودهم بآياته إنما نشأ من جهلهم بأنفسهم وكفرهم بالعقول المركبة فيهم.

حجة الله على العالمين

وبهذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها وجعلهم بها مستعدين للمعرفة والإدراك، بهذه العقول التي تعرف عواقب الأمور، وتميز بين الحق والباطل، والحسن والقبيح مع الكتب المقدسة التي أنزلها الله تعالى، والرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام الذين بعثهم الله تعالى بالكتاب والحكمة مبشرين ومنذرين هادين ومرشدين انقطعت معاذير العباد، وقامت عليهم حجة الله تعالى واضحة بينة، وقد أبقى الله تعالى لهذه العقول مجالاً في كل صنعة من الصناعات الدنيوية وترك لها من كل نعمة أنعمها على الإنسان جانباً يفتقر للنظر ويحتاج للتفكير. وجعل من الموجودات المتصلة بالإنسان القائم عليها نظام حياته حقائق ثابتة لا تدركها الحواس ولا ترى بالأبصار. وإنما تعرف بأفعالها كحقيقة العقل والروح، وكصفاتنا القائمة بذواتنا من العلم والإرادة والحب والبغض والخوف والرجاء.. كل ذلك لترتاض العقول على النظر وتتعود البحث والاستدلال فتسهل عليها معرفة الله تعالى وقبول ما جاء به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.. ولذلك أحال الله تعالى على العقل من يتشكك في الدين تنبيهاً على شرفه وجلالة أمره، وأنه العمدة في فهم الكتب المنزلة.

كما قيل: لولا العقل لم ينتفع بالكتاب، ولولا الكتاب لأصبح العقل حائراً واجتماعهما نور على نور:

قال الله تعالى: "لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا"[١]

---

[١] سورة الأنبياء: الآية ٢٢

وقال عز وجل: "وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ"[١]

وقال تبارك وتقدس: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ"[٢] الآية.

وقال تعالى: "أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ"[٣]

هل يجد الإنسان أبلغ من هذا الاحتجاج، واقطع للمشاغبة واللجاج؟

وقد ضرب عز وجل مثل العقل والدين فقال: "اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"[٤]

جعل المصباح مثلاً للعقل لما فيه من العلوم الضرورية التي يهتدي بها السائرون، وجعل المشكاة مثلاً لصدر المؤمن، والزجاجة مثلاً لقلبه، والشجرة المباركة وهي الزيتونة مثلاً للقرآن، وجعلها لا شرقية ولا غربية تنبيهاً على أن القرآن ودين الإسلام مصون عن الإفراط والتفريط، وبين أن القرآن يمد العقل بالمعرفة كما يمد الزيت المصباح، وأنه لوضوحه يكاد يكفي وحده وإن لم يعضده العلوم العقلية.. ثم قال" نور على نور " أي نور القرآن على نور العقل.

---

[١] سورة البقرة: الآية ٢٣.

[٢] سورة الحج: الآية ٥

[٣] سورة الطور: الآيتان ٣٥، ٣٦

[٤] سورة النور: الآية ٣٥

هل ينظرون إلا تأويله؟

فلا عذر بعد ذلك لجاهل، قال تعالى: "رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ"[1]

وقال عز وجل: "وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ"[2]

تأمل – بصرك الله تعالى– في هاتين الآيتين، ما أشدهما وأروعهما. يقول جلت عظمته إنه أنزل القرآن الكريم وفصله عالماً بما حواه من تكليف العباد وما تضمنه من الوعد والوعيد والقصص والأخبار وأحوال الجنة والنار. وغير ذلك.. وجعله هدى ورحمة لكل عاقل يومن بالخير والشر والفضيلة والرذيلة ويقيم وزناً للقيم الروحية ويعترف بحقائق الأشياء.. ثم هدد المكذبين له المكابرين فيه بلا حجة ولا برهان بأنه قد قضي الأمر ونفذ الحكم وانقطعت المعاذير بعد ما وهب الله تعالى العقول وأرسل الرسل بالمواعظ والتذكير فلم يبق غائب ينتظر إلا تأويل هذا الكتاب العزيز، يعني وقوع ما تضمنه من الوعد والوعيد، والثواب والعقاب فما مثل من يجحد وينكص.

على عقبيه ويحاول التخلص والتنصل من التزام التكاليف إلا مثل النعامة التي ترى الصياد فتخفي رأسها في الرمل، فهل ينجيها ذلك الصياد ويجديها فتيلاً؟ كلا والله. كذلك هؤلاء الذين كذبوا القرآن، وجحدوا البيان وتشبثوا بالأوهام الباطلة لا مفر لهم ولا مهرب من عذاب الله تعالى، ولا يغني عنهم ما

---

[1] سورة النساء الآية: ١٦٥

[2] سورة الأعراف الآيتان: ٥٢، ٥٣

كسبوا شيئاً بل يوم القيامة يضل عنهم ما يفترون ويحيق بهم جزاء ما يكسبون.. "يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا"[(١)]

ويبدو لي أن هاتين الآيتين أي الكتاب وقعاً.. وإن أشار بعض العلماء إلى غيرهما كقوله عز وجل: "سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ"[(٢)]

قال بعضهم: إنها أشد آية في كتاب الله تعالى، وعن بعضهم: لو سمعت مثلها من خفير الحارة لم أنم.

فطرة الله لا تتبدل

كما خلق الله تعالى العين قابلة للرؤية، والأذن قابلة للسمع، كذلك خلق العقل قابلاً للمعرفة مدركاً لحقائق الأشياء.

وكما يقع العلم بالمبصرات والمسموعات عند فتح الأجفان وعند الاستماع والإصغاء كذلك يقع العلم بالمعقولات عند استعمال العقل وتوجيهه.

وكما لا يمكن إزالة العين عن الرؤية أو الأذن عن السمع إلا لعارض يعرض لها وآفة تطرأ عليها، كذلك لا يمكن إزالة العقل عن معرفة الحقائق والتمييز بين الأشياء وأضدادها إلا إذا اعترضته العوارض كإضلال الأبوين، وإغواء الشياطين، فحينئذ يختل نظره ويفسد مزاجه، وينقلب علمه جهلاً ورشده غيا.

هذه هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وأشار لها رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أخرجه الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ أنه ﷺ قال: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٣٠

(٢) سورة الرحمن: الآية ٣١

البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون بها من جدعاء"

يعني أنه كما تلد البهيمة ولدها كاملاً سليم الأطراف فلو ترك على ذلك لكان بريئاً من العيب، لكنهم تصرفوا فيه بقطع أذنه مثلاً فخرج عن الأصل. فكذلك العقل يخلق سليماً مستعداً للمعرفة وإدراك الحقائق على ما هي عليه ما لم يطرأ عليها عارض يفسده، وهذا الحديث الشريف الذى نعده من المعجزات النبوية لأنه كشف عن الحقيقة الإنسانية وأخبر عن واقعها وقال كلمة الفصل في شأنها هو بيان وتأويل لقوله عز وجل "فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ" وقوله تبارك وتعالى: "إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ"[١] أي أن الإنسان هو الذى صلح بفطرته الخاصة لحمل أمانة الله تعالى، وهى المعرفة والتوحيد، فكل إنسان مستعد لحمل هذه الأمانة ومطيق لها في الأصل وإنما يثبطه عن معرفتها والنهوض بأعبائها الآفات التي تطرأ عليه.

واختلف العلماء في قوله تعالى: "لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ" فقيل معناه لا ينبغي ولا يستقيم أن يبدل الناس هذه الفطرة فيخلوا بموجبها ولا يرتبوا عليها مقتضاها، باتباعهم الهوى وقبولهم وسوسة الشياطين.

وقيل المعنى لا يقدر أحد على أن يغير خلق الله تعالى فطرته التي فطر الناس عليها وهي استعدادهم لقبول الحق وتمكنهم من معرفته، ويجعل لهم فطرة أخرى مكانها غير مستعدة لذلك ولا قابله له، وهذا هو الذي ذهب إليه الراغب.. واختاره ابن القيم. وبه نقول، فإن تعذر إدراك الحقائق العقلية أو العلوم النبوية على بعض الناس لوجود موانع خاصة بهم لا ينافي وجود الاستعداد الذاتي لغيرهم، ولهم أيضاً إذا زالت عنهم الموانع المذكورة.

---

[١] سورة الأحزاب آية ٧٢

كما أن عدم رؤية بعض العيون للشمس وهي طالعة ليس دونها سحاب لآفة تصيبها أو حاجز يحجبها لا ينافي أنها بحسب الأصل قادرة على الرؤية متمكنة منها، وأن أصحاب العيون السليمة يرونها ولا يعتريهم في ذلك لبس، ولا يداخلهم شك.

ولا عبرة بما يحكيه العلماء عن طائفة من البشر يسمون "السمنية" ولا بما ينعق بها الناعقون في هذه الآونة من إنكار ما عدا الحسيات من العلوم وعدم الثقة بالعلوم ودلالتها. فإنما ذلك لمرض حل في عقولهم أفسد مزاجها، وأخل بنظرها، وقد غرهم ما رأوه من تناقض الأدلة بين العلماء، وما اعتراهم في بعض المسائل من شبه وإشكالات عسر عليهم حلها فظنوا أنها لا حل لها أصلاً، ولا أدل على فضيحة هؤلاء وفرط حماقتهم وغباوتهم من أن العقلاء قاطبة على خلاف رأيهم هذا؛ فلم يزل الناس عافتهم وخاصتهم يرون العقل طريق العلم وسبيل الوصول إلى الحقائق وكلما التبس عليهم- كما قال الخوارزمي في "مفيد العلوم"- حكم شيء من الغائبات فزعوا إلى العقل كما يفزعون إلى البصر والسمع في تعرف ما يخفى من المرئيات والمسموعات.

وأسخف من هؤلاء وأضل سبيلاً طائفة أخرى يسمونه "بالسوفسطائية" ينكرون العلم حتى بالمحسوسات كعلمنا بوجود أنفسنا ووجود الشمس والقمر وهذه الطائفة لا حيلة فيهم ولا علاج لهم إلا أن يتركوا حتى يشفيهم الله تعالى أو يهلكهم على ضلالهم.

وأنكر الشيخ ابن تيميه وجود هذه الطائفة حيث قال "وأما ما يذكره طائفة من أهل الكلام وناقلي المقالات أن رجلاً يقال له سوفسطا وأنه وأصحابه ينكرون جميع الحقائق والعلوم فهذا باطل لا حقيقة له".

قال: "ولا يتصور أن يعيش أحد من بني آدم، بل ولا من البهائم مع

جحد جميع الحقائق والشعور بها فالإنسان مدني بالطبع فلابد أن يعرف بعض الناس بعضاً ويعرف الإنسان جوعه وشبعه وعطشه ورية ولذته وألمه ويميز بين ما يأكله وبين ما لا يأكله، وما يلبسه وما لا يلبسه، وبين مسكنه ومسكن جاره، وبين الليل والنهار وغير ذلك من الأمور التي هي ضرورية للحياة".

وجملة الأمر أن الله تعالى أكرم هذا الإنسان إكراماً لا غاية له وفطره فطرة سامية، أهله بها لكل سعادة وخير حيث جعله قادراً على إدراك الأشياء على ما هي عليه قادراً على الإيمان بالغيب مستعداً لمعرفته عز وجل وتحمل تكاليفه علماً وعملاً، مستعداً لمراقبته ومشاهدته في مصنوعاته مشاهدة قلبية لا تقل عن مشاهدة الحواس المحسوسات، مستعداً لحبه والخوف منه عز وجل مع كونه ليس جسماً ولا له صورة وشكل محسوس، مستعداً للشوق إلى الجنة ونعيمها والخوف من النار وعذابها وأن لم يكونا مشاهدين في هذه الحياة الدنيا، مستعدًا لقهر شهوته ومخالفة هواه، مستعداً لنفي خواطر الشبهات والشهوات وحفظ قلبه من طوارق الغفلة ومراعاة أنفاسه مع الله تعالى في عموم الأوقات.

اليقين الحسي واليقين العقلي

ومن الناس من لا ينكر الحقائق العقلية ولكنه يعطي الأهمية والاعتبار للعالم المحسوس .. وهذا غلط فاحش وجهل قبيح، ونقص في معنى الإنسانية كبير.

فإن من الموجودات المعلومة بالعقل والغير المحسوسة ما هو أكمل وأقوى وجوداً من المحسوسات كالعقل نفسه. وهو الغريزة التي يتهيأ بها الإنسان لإدراك العلوم، ويستفيد بها التجارب ويعرف العواقب ويقوم بها الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة وهو أصل العلوم ومنبعها .. وكالروح وهي القوة المدبرة للبدن

المسيطرة على جميع الجوارح والأعضاء.. وكذات الله عز وجل الذي هو أكمل الموجودات وأشرفها على الإطلاق. كيف لا.. وهو مبدعها ومخترعها.. وهو الحي القيوم القائم بنفسه، والقائم به كل موجود سواء. ولولاه ما وجد شيء من المكونات حسياً كان أو عقلياً. وإن كان هو جل شأنه لا يحس ولا يدرك بالأبصار في هذه الحياة الدنيا وإنما تدل عليه آثار قدرته، وبدائع صنعته. ونحن إذا رأينا من يكتب بين أيدينا كلمة عرفنا قطعاً قدرته على الكتابة وعلمه بها وإرادته لها استدلالاً بفعله وكان يقيننا الحاصل بوجود هذه الصفات– القدرة، العلم، الإرادة– فيه كيقيننا الحاصل بحركات يده المحسوسة وانتظام سواد الحروف على البياض وإن كان هذا مرئياً وتلك الصفات غير مرئية.

فكل علم لا يقبل الشك يقين– سواء حصل بحس كالعلم بوجود أنفسنا ووجود الشمس والقمر أو بديهة عقل كالعلم باستحالة حادث بلا سبب أو بتواتر كالعلم بوجود "مكة" المكرمة لمن سمع خبرها ولم يشاهدها. أو بتجربة كالعلم بأن النار محرقة. أو بدليل كما إذا قيل للإنسان.. هل في الوجود قديم؟ فلا يمكنه القول بذلك على البديهة لأن القديم غير محسوس كالشمس والقمر ولا هو بديهي كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد فمن حق غريزة العقل أن تتوقف عن القول بوجود القديم على طريق الارتجال والبديهة قبل النظر والاستدلال وهو أن يقال له "إن لم يكن في الوجود قديم فالموجودات كلها حادثه. فإن كانت كلها حادثة فهي حادثة بلا سبب، أو فيها حادث بلا سبب وذلك محال بالبداهة، والمؤدي إلى المحال محال: فيلزم العقل التصديق بوجود قديم بالضرورة".

فهذا يقين لا شك فيه لأنه مبني على ضرورة الحس، وبديهة العقل وما بني على اليقين فهو يقين.. وما أحسن ما قال بعض العلماء من السلف "لو لم يعبد

الله تعالى إلا عن رؤية ما عبده أحد ولكن المؤمنين نظروا في آيات السموات والأرض واختلاف الليل والنهار فأيقنوا به كأنهم يرونه". ومعنى ذلك أن اليقين بوجود الله تعالى وإن لم يكن بديهياً ضرورياً يوجد في الإنسان بلا سبب ويبذل إليه بلا طلب كالعلوم التي تدركها حواسه أو يعلمها بضرورة عقله إلا أنه ممكن منه ومستعد له استعداداً قريباً، وفي قدرته وطاقته تحصيله واكتسابه متى شاء ووفقه الله تعالى لأن أصول هذا اليقين موجودة في نفسه، مركوزة في غريزة عقله يلمحها العاقل الذكي بنفسه ويتنبه إليها الغافل بأدنى تنبيه.

وعن الإمام علي رضي الله تعالى: عنه "لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً".

وقيل له مرة: هل رأيت ربك؟! فقال: وهل أعبد ما لا أرى، فقال السائل: وكيف تراه؟ فقال: "لا تدركه العيون بمشاهدة العيان. ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان قريب من الأشياء غير ملامس، بعيد عنها غير مباين، متكلم لا بروية، مريد لا بهمة، صانع لا بجارحة، لطيف لا يوصف بالخفاء، كبير لا يوصف بالجفاء، بصير لا يوصف بالحاسة، رحيم لا يوصف بالرقة، تعنو الوجوه لعظمته، وتجب القلوب من مخافته.

وكشف بعض الغربيين السر فيما يعرض لبعض الناس من الخلل العقلي والتشبث بالحسيات أكثر من المعنويات والمعقولات حيث قال: إن كثيراً مما يعرض للشباب من الخلل العقلي، والحطة الخلقية ناشئ من آثار المادية.. ومن ذلك أنها تعود الفكر أن يتشبث بالآراء الحتمية- يقصد الآراء المستندة إلى ضرورة الحس- حتى يفقد القدرة على صحة الحكم والتبصر في الأمور... وهذا كلام قيم ومهم جداً. وقد قال مثله وأبدع منه العارف السيد عبدالعزيز الدباغ كما في كتاب "الإبريز" حيث جعل من أجزاء العلم- أي من خصائص العلم وهو الصفة التي تنكشف بها المعلومات- حمله للمعلومات وهو نور في العلم

يوجب له حصول الأشياء فيه حصولاً يفوق حصول المبصرات في البصر، والمسموعات في السمع، والمحسوسات في الحواس. فحصول الأشياء فيه بمثابة الذات، وحصولها في البصر مثلاً بمثابة الظل والخيال يعني أن الحصول الثاني كالخيال بالإضافة إلى الحصول الأول، فالحصول في العلم هو الحصول الحقيقي، والحصول في البصر هو الخيالي عكس ما يعرفه الناس وإنما انعكس الأمر عند الناس لقلة نور العلم فيهم- يعني لضعف صفة العلم الناشئ من ضعف العقل- حتى أنه كالشعرة أو أقل فلما قل العلم فيهم صاروا معولين على الحواس. وأما من أعطاه الله تعالى العلم الكامل فإن البصر وسائر الحواس عنده كالخيال بالإضافة إلى ما عنده من العلم.. إلى أن قال فالعلم محيط بالظاهر والباطن، والأجزاء وأجزاء الأجزاء، وبالتفاصيل وتفاصيل التفاصيل، والبصر مثلاً إنما يتعلق بالسطحيات ولا يعمها فضلاً عن أن يخرقها إلى الباطن.. فلا ينبغي أيها الرجل أن يعظم عندك أمر الحواس حتى تعتقد أن المدركات الحقيقية هي المحسوسات فقط بل الله تعالى جعل للحواس أشياء تدركها وللعقل أشياء يختص بها وكل في بابه كاف واف.. والعقل والحواس كلها متعاونة متعاضدة، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ولا في حكمته من تقصير..

الضروري والنظري

ولا تظن أن هناك فرق بين العلوم الضرورية والنظرية إلا من جهة أن الأولى تحصل ابتداء. لا يدري الإنسان متى حصلت. ولا كيف حصلت. ولذلك يشترك فيها الخاصة والعامة ولا يتوجه إليها جحد ولا إنكار، ولا تحسن المطالبة فيها بدليل لأنها منتهى الأدلة وغاية النظر.

والثانية تبنى عليها وتحصل بعدها، ويعرف الإنسان الطريقة التي اكتسبها بها. ومثال ذلك أنك تعلم نفسك وتعلم أنك موجود بالضرورة ولكنك لا تعلم

أنك محدث وأن لك صانعاً أحدثك إلا بعد الفكر والنظر فعليك بوجود نفسك سابق على علمك بأنك حادث، وعلمك بأن لك محدثاً. ويسمى الأول علماً ضرورياً لأن الله تعالى ألجأ نفسك له واضطرها إليه، والثاني نظرياً لأنك اكتسبته بنظرك وفكرك.. هذا كل الفرق ولا فرق غيره اللهم إلا من حيث الوضوح والخفاء. وهذا لا يعد فرقاً حقيقياً ولا تأثير له في المطالب العلمية أصلاً.

تعيش العقول

قيل لابن المبارك لما كثرت الأحاديث الموضوعة هذه الأحاديث الموضوعة. فقال تعيش لها الجهابذة– أي نقاد الحديث وحذاقه.

ونحن نستعير هذه الكلمة منه ﷺ ونقول تعيش العقول.. تعيش العقول التي جعلها الله تعالى الوسيلة إلى معرفته، والسبب الذي يتوصل به إلى تصديق رسله عليهم الصلاة والسلام.

تعيش العقول التي هي أول رسول بعثه الله تعالى إلى عباده وهي حلقات الاتصال بينهم وبينه عز وجل. والموازين العادلة التي تعرف بها مقادير الأشياء. تعيش العقول التي تدفع الشبه وتفهم النصوص، وتدفع التعارض الذي يبدو بين بعضها والبعض الآخر، تعيش العقول التي لا تخاصم الشرع ولا تنكر الوحي بل ترى فيه نورها ورشدها، إن مثل الشرع كمثل الشمس، ومثل العقل كالعين فإذا فتحت العين وكانت سليمة استعانت بنور الشمس على رؤية الأشياء.. وكذلك العقل إذا تأيد بنور الشرع واستعان بالعلوم النبوية عرف الحق حقاً والباطل باطلاً وعاش عيش السعداء.

بالعقل آمنا برب العالمين، وعلمنا أن سيدنا مُحَمَّداً ﷺ رسوله المؤيد بالمعجزات، المبعوث لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، كما بعث من قبله

آدم وإبراهيم وموسى وعيسى وسائر المرسلين لهداية العباد وإرشادهم إلى طريق السداد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

بالعقل عرفنا أن القرآن لا يقوله بشر. وليس حديثاً مفترى وإنما هو كلام رب العالمين، نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ تذكرة وتبصرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

بالعقل يعرف الإنسان كيف يخلص من وساوس الشيطان وكيف ينجو من فتنه ومكايده. وكيف يحتال على النفس. وكيف يصرفها عن الباطل ويشغلها بالحق فيربح الربح العظيم وينال الخير العميم.

بالعقل يعرف الإنسان أنه لا يربح على نفسه بأجل من أن يشغلها في كل وقت بما هو أولى فيه.

بالعقل يدين الإنسان نفسه ويعمل لما بعد الموت.

بالمقل يحب خالقه المنعم عليه بالعقل وغيره من سائر النعم، الذي جعله سيد الموجودات كلها، وخلقها كلها من أجله.

بالعقل يعرف الإنسان أنه وجد في هذه الحياة الدنيا لغاية خاصة ومهمة محدودة "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ".

بالعقل يعرف الإنسان نفسه وما انطوت عليه من العجائب والأسرار وما ركب فيه من الشهوة والهوى، وما دعي إليه من الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور فيجعل لقاء الله تعالى مقصده، والدنيا منزله، والآخرة مستقره.

ويستعين بكل نعمة وكل حاسة، وكل جارحة، وكل زمان وكل مكان وكل صديق على طاعة الله تعالى واكتساب رضاه.

بالعقل صار الإنسان خليفة الله في أرضه، وموضع سره، ومحل نظره.

وما أحسن قول من قال: "بصائر المبصرين ومعارف العارفين ونور العلماء الربانين وطرق السابقين والناجين والأزل والأبد وما بينهما من الحدث لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد" أي لمن كان له عقل مفكر وقلب مبصر.

وفي الحديث عن النبي ﷺ (تبارك الله الذي قسم العقل بين عباده أشتاتاً إن الرجلين ليستوي عملهما وبرهما وضومهما وصلاتهما ولكنهما يتفاوتان في العقل كالذرة في جنب أحد وما قسم الله لخلقه حظاً هو أفضل من العقل واليقين).

وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه: (كان رسول الله ﷺ إذا بلغه عن رجل شدة عبادة سأل عن عقله فإذا قالوا حسن قال أرجوه، وإن قالوا غير ذلك قال لن يبلغ).

وذكر له ﷺ شدة عبادة رجل فقال كيف عقله قالوا ليس بشيء قال لم يبلغ صاحبكم حيث تظنون.

كيف تفهم؟

أوضح المناهج وأقربها وأوسعها للسالكين، وأنجعها في فهم المسائل العلمية وإدراك الحقائق الدينية هو منهاج الفطرة الإنسانية الذي نبه إليه القرآن الكريم والسنة النبوية في غير موضع.

وبيان ذلك. أن يتصور الإنسان أي حقيقة من الحقائق الدينية ثم يستعرض العلوم المخزونة في نفسه والمبادئ الفطرية المركوزة في عقله الذي لم يزل يجرى عليها في فهم الحياة وتدبير معايشه فيها، ويستعملها في معاملاته مع الناس ومخاطبته لهم.. فيطبقها على تلك الحقيقة الدينية ويعمل بمقتضاها ويجري على سنتها تاركاً للتعمق والتكلف غير ملتفت إلى القروض والاحتمالات البعيدة التي يخلقها

الوهم ويلقيها الشيطان. كما يفعل الإنسان في الأمور الدنيوية سواء بسواء.

عند ذلك يجد مسائل الدين كلها في غاية الوضوح والجلاء موافقة لعقله ملائمة لفطرته مطابقة لعلومه فيستريح لها ويطمئن إليها لأنه قبلها بشاهد من وجدانه، وبرهان من عقله.

فليس هناك إذن شيء جديد ولا أمر غريب سوى الانتقال من الصور الحاصلة في ذهنه إلى الصور التي كانت غائبة عنه وهي مماثلة لما عنده. وبعبارة أخرى ليس هناك إلا تطبيق القواعد التي يعرفها على جزئياتها المندرجة تحتها.

يرى الإنسان كلمة مكتوبة، أو ساعة مصنوعة.. أو داراً مشيدة فيستدل بوجودها على أن لها كاتباً كتبها وصانعاً أوجدها وأحكم صنعها من غير أن يبصر هذا الصانع أو يحس بوجوده.

ويعرف بالبداهة أنه لا يستقيم واليان على خطة واحدة وأن كل اثنين مختارين متكافئين في السلم والقدرة إذا ملكا شيئاً معيناً وتصرفا فيه بالفعل فلا بد أن يحد كل منهما من قدرة صاحبه وإرادته.

وإذا كان الأمر كذلك. فهذه الأرض التي تقله، وهذه السماء التي تظله، وهذا الليل والنهار والشمس والقمر والحيوان والنبات، بل هذا الإنسان نفسه وما فيه من الجوارح والأعضاء والقوى الظاهرة والباطنة.. كيف يعقل أن توجد هذه الأشياء كلها بلا موجد أوجدها وحكيم دبرها..؟ وكيف يعقل ألا يكون صانع هذا العالم واحداً منفرداً في التأثير والإيجاد. ولا يجرى في العالم فساد ولا تغيير؟

هذا هو المنهاج الفطري، والطريقة الطبيعية التي أوحت لذلك العربي الذي لم يتعلم فلسفة ولا منطقاً ولا عرف قياساً من الشكل الأول أو الشكل الثاني أن يقول: (البعرة تدل على البعير، وأثر الأقدام يدل على المسير، فسماء ذات

أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا تدل على الطيف الخبير). فلم يكلفنا الله تعالى غير ما نستطيع ولم يطلب منا إلا تطبيق القواعد التي نعرفها ونسير عليها في حياتنا ومعاملات بعضنا لبعض.

لم يمتحنا بما تعيا المعقول به   حرصاً علينا فلم نرتب ولم نهم

نعم.. ولم يذكر لنا جل شأنه في كتابه العزيز أو على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم من صفاته العلية إلا ما هو ظاهر للأفهام وقد أعطانا نموذجاً منه كالعلم والقدرة والإرادة. وما إلى ذلك مما يفهمه الإنسان بنوع مقايسة على ما في نفسه مما هو حاضر عنده في الحال أو كان له من قبل. ثم بالمقايسة إليه يفهم ما لله تعالى منه مع اعتقاده بالضرورة أن بين صفاته جل وعلا وصفات الأكوان تفاوتاً كبيراً في الشرف والكمال.

فالإنسان بين يديه مصباح هدايته، ومنهاج سعادته. وهي فطرته التي فطره الله تعالى عليها، وما أرسل الله عز وجل رسله عليهم الصلاة والسلام إلا مطالبين بميثاق هذه الفطرة مذكرين بنعم الله تعالى التي لا يحصى عددها ولا يؤدي شكرها.

قال الإمام علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه في خطبة له: (إن الله سبحانه وتعالى اصطفى أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم لما بدل أكثر خلقه عهد الله إليهم فجهلوا حقه واتخذوا الأنداد معه، واجتالتهم الشياطين عن معرفته، واقتطعتهم عن عبادته فبعث فيهم رسلاً وواتر إليهم أنبياء، ليستأدوهم ميثاق فطرته ويذكروهم منسي نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول وبروم الآيات المقدرة: من سقف فوقهم مرفوع، ومهاد تحتهم موضوع، ومعايش تحييهم، وآجال تفنيهم، وأوصاب تهرمهم، وأحداث تتتابع عليهم، ولم يخل سبحانه خلقه من نبي مرسل أو كتاب

منزل أو حجة لازمة، أو محجة قائمة)..

واعلم أن هذه الطريقة الفطرية التي نبهناك عليها هي الحكمة الحقيقية والميزان الذي أنزله الله تعالى كما أنزل القرآن: " لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ"[1] وهي الطريقة القويمة التي تخرج الإنسان من التقليد المذموم وتعالج مركب النقص الذي استولى على كثير من الأذهان، وهي طريقة الكتاب العزيز قال الله تعالى: "أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"[2]

إلى غير ذلك من الآيات التي كلها استفهامات تقرير، كأنه تعالى يقرر عباده بشيء فطرهم عليه.

وهي كذلك طريقة الخليل والكليم على نبينا وعليهما الصلاة والسلام.

قال تعالى حكاية عن الخليل: "فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً

(١) سورة الحديد الآية: ٣٥

(٢) سورة النمل الآيات ٦٠-٦٤

قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ"(١)

استدل عليه الصلاة والسلام– وما استدل لنفسه بل لإرشاد قومه– على حدوث الكواكب والقمر والشمس بأنها متغيرة وموصوفة بالمكان الحسي وبالأفول بعد الإضاءة الحسية وهذه أمارات الحدوث والافتقار. وما كان كذلك فلا يصح أن يكون رباً يعبد وإنما لم يتعرض لحدوث أشخاص النبات ولا أفراد الإنسان لأن حدوث هذه ووجودها بعد العدم. وعدمها بعد الوجود أمر ضروري مشاهد محسوس. وإنما الذي يحتاج إلى نظر لإثبات حدوثه هذه الكواكب التي لم يشاهد عدمها بعد وجودها، فأقام الدليل العقلي القاطع على حدوثها وإمكانها بأنها موصوفة بالصفات الممكنة المذكورة آنفاً.. ثم إنها – أي الكواكب المذكورة – هي التي عبدت في وقته عليه الصلاة والسلام من دون الله تعالى فبين أنها لا تستحق العبادة وأنها منحطة عن درجة الألوهية.

وأما سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام فقد ذكر أنواع الموجودات كلها كما حكى القرآن الكريم عنه في مناظرة فرعون:

قال الله تعالى: "قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ"(٢)

فأشار إلى إمكان السموات والأرض وحدوثهما عند من له بصيرة ويقين لما فيهما من أمارات، الحدوث على النحو الذي أشار إليه الخليل فيما سبق، ولما كان

---

(١) سورة الأنعام الآيات ٧٦-٧٩

(٢) سورة الشعراء ٢٣-٢٨

في هذا نوع خفاء وكان مناظره فرعون ومن حوله قد بلغوا من البلادة حداً بعيداً انتقل بهم إلى ما هو أجلى وأظهر وهو حدوثهم وحدوث آبائهم الأولين. فإن هذا مشاهد ضروري. وحدوث المشرق والمغرب. وحدوثها وتغيرهما أيضاً أمر مشاهد. وما كان متغيراً حادثاً استحال أن يوجد بنفسه من غير موجد أو موجد ممكن. فلزم ثبوت الصانع القديم الباقي الذي يستحيل عليه التغير والجهة والمكان.

فسبحان من أرسل رسوله الكرام عليهم الصلاة والسلام بالحجج الساطعة "وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ"[1] وسبحان من أنزل كتابه تبياناً لكل شيء وما فرط فيه شيء يتعلق بالتوحيد والدين والأحكام الشرعية عامة ولقد صدق رسول الله ﷺ وأنصف غاية الإنصاف حيث يقول- كما سبق- "إنما مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها وترك فيها موضع لبنة فصار يقال ما أحسنها لو تمت فأنا اللبنة التي تم بها الأنبياء".

فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام كل يعضد الآخر، والقرآن جمع علوم الأولين والآخرين..

ولا تحتاج هذه الطريقة إلى فلسفة ومنطق ولهذا عني بها القرآن الكريم وهو كتاب الخاصة والعامة وأبرزها في صور عديدة وأساليب متنوعة كلها في غاية الجلاء والوضوح لتسع الناس جميعاً منها ما سبق ذكره ومنها قوله عز وجل: "أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ"(٢). وقوله جل ذكره: "أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩)

[1] سورة الأنعام الآية ٨٣.

[2] سورة ق الآيات ٦-٨

وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ"[1] وقال: "أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ"(٢). وقال: "وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ"(٣) وقال: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ"[4].

وقال: "ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ"[5]

قال بعض الأئمة: إنما أوردت حجج القرآن على عادة العرب دون دقائق المتكلمين لقوله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ"[6]..

ولأن من استطاع أن يفهم غيره بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لا ينبغي أن ينحط إلى الأغمض الذي لا يفهمه إلا الأقلون". وإلا كان ملغزاً. ومن ثم أخرج تعالى في مخاطباته محاجة خلقه في أجلى صورة وأوضحها ليفهم العامة ما يقنعهم والخاصة ما يليق بهم..

وبعد: فإني أعجب كثيراً ممن يظل طول حياته معتزاً بإنسانيته محتكماً إلى وجدانه وعقله معولاً عليهما معتمداً على دلالتهما في حياته ومعاملاته مع

---

[1] سورة الغاشية الآيات ١٧–٢٠

[2] سورة الواقعة ٥٨–٥٩

[3] سورة الرعد الآية ٤

[4] سورة الحج الآية ٧٣.

[5] سورة الروم الآية ٢٨

[6] سورة إبراهيم الآية ٤

الناس، يصدق الأمور الغائبة عنه إذا نقلت إليه نقلاً صحيحاً ولا يشك في خبر التواتر ولهذا يعلم وجود (بغداد أو البصرة. ومكة والمدينة) وإن لم يكن شاهدها. ويعلم أنه قد كان خلق قبلنا عاشوا على ظهر هذه الأرض كما نعيش نحن عليها ولا يزال في حياته يثق بالرجل إذا جرب صدقه وأمانته ويذعن لمن زاد عليه عقلاً وعلماً ويستدل بتأليف الشافعي رضي الله تعالى عنه ميلاً على كمال عقله وقوة استنباطه حتى إذا حاكمناه إلى العقل والوجدان وعرضنا عليه ما يوافقهما نكص على عقبيه، وجعل أصابعه في أذنيه. قال الفخر الرازي "قال بعض الفضلاء: إن من لطم على وجه صبي لطمة فتلك اللطمة تدل على وجود الصانع المختار، وعلى وقوع التكليف، وعلى وجوب دار الجزاء، وعلى وجود النبي: أما دلالتها على وجود الصانع المختار فلأن الصبي العاقل إذا وقعت اللطمة على وجهه يصيح ويقول: من الذي ضربني؟ وما ذاك إلا أن مشاهدة فطرته تدل على أن اللطمة لما حدثت بعد عدمها وجب أن يكون حدوثها بفاعل فعلها ومختار أدخلها في الوجود. فلما شهدت الفطرة الأصلية بافتقار ذلك الحادث مع قلته وحقارته إلى الفاعل فبأن تشهد بافتقار جميع الحوادث إلى الفاعل كان أولى.

وأما دلالتها على وقوع التكليف فلأن ذلك الصبي ينادي ويصيح ويقول لم ضربني ذلك الضارب؟ وهذا يدل على أن فطرته شهدت بأن الأفعال داخلة تحت الأمر والنهي ومندرجة تحت التكليف وأن الإنسان ما خلق ليفعل أي فعل شاء ويأتي أي أمر اشتهي.. وأما دلالتها على وجوب دار الجزاء فهو أن ذلك الصبي يطلب الجزاء على تلك اللطمة وما دام يمكنه طلب ذلك الجزاء فإنه لا يتركه. فلما شهدت الفطرة الأصلية بوجوب الجزاء على ذلك العمل القليل فبأن تشهد على وجوب الجزاء على جميع الأعمال كان أولى.. وأما دلالتها على

وجوب النبوة فلأن صياح ذلك الصبي واستنكاره لتلك اللطمة يدل أن الناس في دنياهم محتاجون إلى إنسان يبين لهم أن العقوبة الواجبة على تلك الجناية. كم هي، ولا معنى للنبي إلا الإنسان الذي يقدر هذه الأمور ويبين هذه الأحكام.

فثبت أن فطرة العقل حاكمة بأن الإنسان لابد له من هذه الأمور الأربعة..

قلت: فالطبيعيون قد خالفوا مقتضى العقول، ونقضوا الميثاق القطري المأخوذ على نفوسهم، حين أنكروا وجود الله تعالى، وجحدوا النبوات. وما مثلهم إلا كمثل الشخص الذي يخلق ناقصاً، فاقد بعض الأطراف من جسمه، أو مثل الشخص الذي يصاب بخلل في مراكز تفكيره فيهذي ويهرف بما لا يعرف. والله تعالى في خلقه شئون.

أيحسب الإنسان أن يترك سدى

الملائكة عليهم الصلاة والسلام مجردون من الشهوات والأهواء، مفطورون على البصائر والعقول، لا يزعجهم جوع ولا عطش، ولا يهمهم تغذية ولا تنمية جبلهم الله تعالى على طاعته، وجردهم لخدمته، وشغلهم بحبه ومشاهدة جماله وجلاله، فلا حاجة بهم إلى التكليف..

والبهائم مشغولة بشهواتها، مجردة من العقول فلا تنبعث إلا إلى لذاتها الجسدية.. فلم تقتض الحكمة الإلهية تكليفها بشيء.

والإنسان جعل فيه العقل والبصيرة، وجعل فيه استعداد لفهم الخطاب واحتمال التكليف، ومع ذلك فقد ركبت فيه الشهوة والهوى فأصبح عرضة للانحراف وتغليب جانب الشهوة.

لذلك خصه الله تعالى بالتكليف، وتوجه إليه الأمر والنهي.

فاعتدال المزاج الإنساني، واختصاصه بموهبة العقل، وقدرته على قهر

نفسه ومخالفة شهوته.. كل ذلك جعله يستعد لتلقي العلوم الربانية والشرائع الإلهية التي تصلح شأنه، وترسم له قواعد العدل والإنصاف.

خلق الله تعالى الإنسان خلقة ممتازة. وجهزه بجهاز علمي كبير. ألهمه النطق وعلمه البيان، وأمده بالعقل والتميز فلم بالضرورة أنه ما خلقه على هذه الصورة العجيبة والنشأة الممتازة إلا لغاية سامية، وحكمة بالغة أفصح عنها الكتاب العزيز حيث يقول "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ"[1] أي إلا ليعرفوني ويطيعوني. والمعنى أنه عز وجل خلقهم صالحين ومستعدين لمعرفته وطاعته بالعقول المركبة فيهم والغرائز التي جبلوا عليها.

وليس يخفى على منصف أن الإنسان مهما كان حصيف العقل سليم التفكير فإنه لا يمكنه بمجرد عقله أن يعرف الله تعالى بصفاته وأسمائه معرفة صحيحة خالصة من شوائب الشرك والتشبيه، وليس في طاقته أن يعرف كيف يعبد الله ويتقرب إليه.. ثم إن الله تعالى قد جعله محتاجاً إلى الطعام والشراب واللباس وغير ذلك من لوازمه ومصالح حياته ومقومات عيشه، وليس تحصيل هذه الأمور ميسوراً للشخص إلا بمعاونة ومعارضة من بني نوعه فهو بالضرورة مضطر إلى مشاركة الغير محتاج إلى الاجتماع تيسيراً لتبادل المنافع.. ومن الغرائز الإنسانية كما هو معلوم حب النفس والميل إلى الأثرة، ومن أجل هذا تقع المزاحمة، والمزاحمة تفضي إلى التنازع والتناحر بالضرورة. فمن ثم دعت الحاجة إلى أن يأتي الرسل عليهم الصلاة والسلام بما يقيم للناس مصالح دنياهم، وينظم طرق معاملاتهم ومعاوضاتهم. حتى يعرف كل منهم ماله وما عليه فيأخذ حقه بالمعروف. ويتناول حاجته من غير ضرر ولا ضرار.

لو كان جميع أفراد الإنسان مفطورين على الرحمة والعدل وحب الخير

---

[1] سورة الذاريات آية: ٥٦

وعدم الاستئثار بالمنافع لجاز أن تخلو بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام من التشريعات الخاصة بمصالح الدنيا ومراعاة العدل في تناولها وتداولها، وأساغ أن تكون شرائعهم الإلهية خاصة بإصلاح العقائد وإقامة العبادات الأخروية فقط. بل لو كان جميع أفراد الإنسان كذلك لكانوا ملائكة روحانيين لا حاجة بهم إلى بعثة وتشريع ولكنهم بهذه الفطرة التي فطرهم الله تعالى عليها، وبما ركب فيهم من الشهوات، وسلط على عقولهم من الأهواء والغفلات كانوا في أشد الحاجة إلى إرسال الرسل، وإنزال الكتب.. وكان إسعاف الله تعالى لهم بذلك من أعظم النعم وأجل المنن.. كما قال عز شأنه "لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ"[١]

فالضرورة إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام والحالة هذه أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها– كما قال ابن القيم في زاد المعاد.

---

[١] سورة آل عمران الآية ١٦٤

النبوة وخصائصها

كما أن العقل طور فوق طور التمييز، والتمييز طور فوق طور الطفولية، فكذلك النبوة طور فوق طور العقول ومرتبة فوق مراتب العلماء والحكماء والعظماء.. مرتبة سامية ومقام عزيز. لا ينال باجتهاد ولا كسب وإنما بهبة الله تعالى لطائفة من البشر أعدهم لذلك إعداداً خاصاً والله أعلم حيث يجعل رسالته.

وفي رسالتنا المسماة "بالنفحات الشذية" وهي التي تقدمنا بها إلى الامتحان النهائي بقسم "التخصص" ما نصه: "إن الله جلت قدرته قد جعل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام برازخ بين البشرية والملكية فجعلهم بظواهرهم بشريين، يتصفون بأوصاف البشر، ويطرأ عليهم ما يطرأ على البشر من الأمراض والآلام، والموت، ونحو ذلك.. وببواطنهم ملكيين يتصفون بأعلى من صفات البشر. قلوبهم متعلقة بالملأ الأعلى سليمة من التغيرات والآفات، لا يلحقها ضعف البشرية ولا عجز الإنسانية ليتأنى لهم بمقتضي بواطنهم الملكية مقابلة الملائكة عليهم السلام وتلقي الوحي عنهم، وليستطيع الناس بمقتضى ظواهرهم البشرية أن يجتمعوا بهم ويخاطبوهم ويأخذوا شرائع الله تعالى عنهم، ولولا ذلك ما أطاقوا رؤيتهم، ولا مشافهتهم. فتتعطل حكمة الله تعالى في إرسالهم كما قال عز وجل: "وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ"[1] أي لما كان إلا في صورة البشر الذين يمكنهم مخاطبتهم ومخالطتهم".

"فالأنبياء إذن نوع مخصوص من البشر اصطفاهم الله تعالى لتبليغ وحيه

[1] سورة الأنعام الآية: ٩

وأداء رسالته وكأنهم نوع مستقل بذاته، غير خاضع لسلطان البشرية كما قال عليه الصلاة والسلام: "إني لست كهيئتكم إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني" وكما قال في الحديث الآخر: (تنام عيني ولا ينام قلبي) فلا يجرى عليهم من الأعراض البشرية إلا مالاً يخل بمنصبهم الشريف كالنوم والمرض، وخفيف الإغماء بخلاف الجنون والبرص والجذام والعمى، وغير ذلك من الأمور المنفرة

كدناءة الآباء وعهر الأمهات، وكالغلظة والفظاظة، والأكل على الطريق، والحرف الدنيئة.. وبالجملة كل ما يخل بحكمة البعثة، من أداء التشريع وقبول الأمة. ومنه بلا ريب مقارفة المعاصي ومواقعة الرجس والمذمومات.. ومن عجيب أمر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن فريقاً من الناس وهم النصارى، قد رفعوا بعضهم عن مستوى البشرية بالكلية إلى مقام الألوهية كما زعموه في عيسى عليه الصلاة والسلام.. وفريقاً آخر وهم اليهود قد جوزوا عليهم النقائص والمعاصي ووصفوا موسى عليه السلام بالأدرة وداود عليه السلام بالحسد (لأوريا) على زوجته وربما أدخل جماعة من المفسرين وكذبة المؤرخين بعض ذلك في كتبهم فافتتن به من يطالعه من الجهلة. نسأل الله تعالى العافية".

وزعم جهلة العرب أن الرسول لا يكون إلا بصفة الملائكة ظاهراً وباطناً فلا يأكل ولا يشرب ولا يباشر النساء. ولذلك قالوا كما حكى الله تعالى عنهم: " أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا"[١] "أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ"[٢]

"وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ"[٣] فرد الله عليهم بقوله: "وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ

---

[١] سورة التغابن الآية: ٦

[٢] سورة القمر الآية: ٢٤

[٣] سورة الفرقان الآية: ٧

فِي الأَسْوَاقِ"[1] "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً"[2]

وقال الغزالي: إن النبي يختص بأنواع من الخواص منها: أنه يعرف حقائق الأمور المتعلقة بالله تعالى وصفاته وملائكته عليهم الصلاة والسلام والدار الآخرة لا كما يعلمه غيره بل عنده من كثرة المعلومات وزيادة اليقين والتحقيق ما ليس عند غيره. وله صفة يبصر بها الملائكة ويشاهد بها الملكوت كالصفة التي يفارق بها البصير الأعمى. وله صفة يدرك بها ما سيكون في الغيب ويطالع بها ما في اللوح المحفوظ كالصفة التي يفارق بها الذكي البليد. وله صفة يحاول بها الأفعال الخارقة لإعادة الصفة التي يحاول بها غيره الأفعال الاختيارية.

ولا تظن أن قوله وله صفة يحاول بها الأفعال الخارقة للعادة أن النبي يخلق المعجزات وخوارق العادات.. بل هي فعل الله تعالى وخلقه وإنما أجراها الله تعالى على يد النبي تأييداً له فقط. كما أن العباد لا يخلقون أفعالهم الاختيارية وإنما لهم فيها مجرد الكسب والاختيار الذي هو مناط التكليف والثواب والعقاب.

وجعل الإمام الحليمي للأنبياء عليهم الصلاة والسلام خواص كثيرة أنهاها إلى ست وأربعين منها تكليم الله تعالى بلا واسطة كما حصل لموسى عليه الصلاة والسلام وكما وقع لنبينا ﷺ ليلة المعراج، ومنها الوحي بلسان الملك، ومنها عصمته عن الخطأ في اجتهاده، ومنها كمال سمعه حتى يسمع مالا يسمعه غيره، ومنها تمكنه من مشاهدة الجن وتمثل الأشياء البعيدة له كتمثل بيت المقدس لنبينا ﷺ صبيحة الإسراء.. إلخ ما قال.

وفي كتاب الإبريز عن السيد عبدالعزيز الدباغ رضي الله تعالى عنه كلام قيم بين فيه خصائص النبوة والرسالة وسماها أجزاء لهما. فعد من أجزاء النبوة ما

---

[1] سورة الفرقان الآية: ٢٠

[2] سورة الرعد الآية ٣٨

يأتي: قول الحق وهو ينشأ عن نور في ذات النبي يوجب لها قول الحق ويكون ذلك من سجيتها وطبيعتها ولا يرجع عنه ولو كان فيه مخالفة الأحباب ومفارقة الأوطان، ولو كان فيه ضرب الأعناق، والصبر وهو نور في الذات ينفي عنها الإحساس بالألم والمصائب التي تلحقها في ذات الله عز وجل وذلك هو الصبر الحقيقي الذي يكون بلا كلفة لاتساع عقل صاحبه، والرحمة وهو نور ساكن في الذات يقتضي الرأفة والحنان على سائر الخلق وهو ناشئ عن الرحمة الواصلة من الله عز وجل للنبي وعلى قدر رحمة الله تعالى له تكون رحمته هو لسائر الناس، ولا شك أنه ليس في مخلوقات الله عز وجل من مرحوم مثل نبينا صلى الله عليه وسلم فلذلك كانت رحمته للخلق لا يوازيها شيء، ولقد بلغ من عظيم رحمته أن عمت العالم العلوي والعالم السفلي، وأهل الدنيا وأهل الآخرة. ومعرفة الله تعالى على الوجه الذي ينبغي أن تكون المعرفة عليه.. والخوف التام منه عز وجل.. وبغض الباطل بغضاً دائماً في كل لحظة من اللحظات. والعفو وهو ناشئ عن نور ساكن في الذات دائماً فيها، من طبع هذا النور أن من ضره نفعه، ومن قطعه وصله، ومن ظلمه، تجاوز عنه، ومن أساء إليه أحسن هو إليه.

ثم عد أجزاء الرسالة (أي خصائصها) سبعة كأجزاء النبوة منها العلم الكامل غيباً وشهادة، والمراد بالغيب ما يتعلق بمعرفة الحق سبحانه ومعرفة صفاته، وبالشهادة ما يتعلق بالخلق فيدخل فيه معرفة العلوم المتعلقة بأحوال الثقلين– الإنس والجن– والعلوم المتعلقة بأحوال الكونين الدنيا والآخرة فلا بد لكل رسول من أن يكون فيه ذلك وهو في نبينا ﷺ بلغ إلى غاية الغاية– ومنها السكينة والوقار وهو نور في القلب يوجب لصاحبه الطمأنينة بالله والاعتماد عليه، وصرف الحول والقوة إليه وعدم مبالاته بغيره عز وجل حتى إنه إذا أمره الله عز وجل بتبليغ أمر وأراد أهل الأرض مضادته فيه وعداوته عليه فإنه لا

يبالي بهم ولا يكترث بشأنهم بل يراهم بمنزلة العدم فيستوي حاله معهم لو صادقوه وأحبوه ونصروه على ذلك أو عادوه وشانأوه فإنه لا يرى لهم حولا ولا قوة في الموافقة ولا في المخالفة.. ومنها كون الرسول يشاهد في حال حياته ما يشاهده الناس بعد موتهم وإنما كان هذا من أجزاء الرسالة لأن الرسل عليهم الصلاة والسلام بعثوا بالترغيب والترهيب وهما لا يكونان إلا ممن يعاين أحوال الآخرة فيرغب في دار الترغيب ويخبر عن دار العقاب ويشرح للناس عذاب القبر وغير ذلك عن مشاهدة ومعاينة..

وقد أيد الله تعالى أنبياء عليهم الصلاة والسلام بمعجزات خارقة للعادات ثبت نبوتهم وتحقق دعوتهم.. وأجرى على يد نبينا ﷺ من ذلك ما يبهر العقول.

قال الماوردي في (أعلام النبوة) بعد أن ذكر أقسام المعجزات: وقد ظهر في نبوة مُحَمَّد ﷺ أكثرها مع ما تقدمها من إنذار. وظهر فيها من آثار وتحقق بها من أخبار فصارت أعم النبوات إعجازاً، وأوضحها طريقة وامتيازاً، وأكثرها تأييداً إلهياً. وتعبداً شرعياً، تقهر شواهدها من باين وعاند وتحج دلائلها من ناكر وجاحد.... ولم تزل أمارات النبوة لائحة في رسول الله ﷺ حين تدرج إليها وهو غافل عنها غير متصنع لها فنهض بأعبائها حين أتته، وقام بحقوقها حين لزمنه غير ذاهل فيها ولا عاجز عنها. إلى أن تكامل به الشرع فتم على أصل مستقر، وقياس مستمر، لا يدفعه عقل، ولا يأباه قلب ولا تنفر منه نفس.. هذا.. وهو أمي لم يقرأ كتاباً ولا اكتسب علماً فأوضح كل ملتبس وبين كل مشتبه حتى رجع

كثير من الملل إلى شريعته في علم ما قصروا عنه من حقوق وعقود استوعب أقسامها وبين أحكامها. وما ذاك إلا بعون إلهي وتأييد لاهوتي وحسبك بهذا شاهداً لو اقتصرنا عليه وحجاجاً لو اكتفينا به.

ولكن سنذكر من معجزاته الفاخرة وبراهينه الواضحة ما يرد كل جاحد ويصد كل معاند من أنواع متغايرة وأخبار متواترة وآثار متظاهرة يصدق بعضها بعضاً ليكون تغايرها جامعاً لكل برهان وتظاهرها دافعاً لكل بهتان.. فمنها ما تقدمه من نذير وبشير، ومنها ما تعقبه من تغيير وتأثير، ومنها ما قارنه من أقوال وأفعال صدرت منه وإليه فلم يبق من الآيات ما أخل به ولا من الأعلام ما قصر فيه..

ثم قال: والقرآن أول معجز دعا به مُحَمَّد ﷺ إلى نبوته فصدع فيه برسالته وخص بإعجازه من جميع رسله وإن كان كلاماً ملفوظاً وقولاً محفوظاً.

لثلاثة أسباب صار بها من أخص إعجازه وأظهر آياته:

أحدها أن معجز كل رسول موافق للأغلب من أحوال عصره والشائع المنتشر في ناس دهره لأن موسى عليه السلام حين بعث في عصر السحرة خص من فلق البحر وجمله يبساً، وقلب العصا حية ما بهر كل ساحر وأذل كل كافر وبعث عيسى عليه السلام في عصر الطب، خص من إبراء الزمني وإحياء الموتى بما أدهش كل طبيب وأذهل كل لبيب.

ولما بعث مُحَمَّد ﷺ في عصر الفصاحة والبلاغة خص بالقرآن في إيجازه وإعجازه بما عجز عنه الفصحاء وتبلد فيه الشعراء ليكون العجز عنه أقهر والتقصير فيه أظهر، فصارت معجزاتهم عليهم الصلاة والسلام- وإن اختلفت- متشاكلة المعاني متفقة العلل.

والثاني- يعني من الأسباب التي صار بها القرآن من أخص إعجاز نبينا ﷺ- أن المعجز في كل قوم بحسب أفهامهم وعلى قدر عقولهم وأذهانهم وكان في بني إسرائيل من قوم موسى وعيسى بلادة وغباوة لأنه لم ينقل عنهم ما يدون

من كلام مستحسن أو يستفاد من معنى مبتكر وقالوا لنبيهم حين مروا بقوم يعكفون على أصنام لهم اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة فخصوا من الإعجاز بما يصلون إليه ببداية حواسهم. والعرب أصح الناس أفهاماً وأحدهم أذهاناً قد ابتكروا من الفصاحة أبلغها، ومن المعاني أغربها ومن الآداب أحسنها فخصوا من معجزة القرآن بما تجول فيه أفهامهم، وتصل إليه أذهانهم فيدركونه بالفطنة دون البديهة وبالروية دون البادرة، لتكون كل أمة مخصوصة بما يشاكل طبعها ويوافق فهمها.

والثالث– أن معجز القرآن أبقى على الإعصار وأنشر في الأقطار من معجز يختص بحاضره ويندرس بانقراض عصره.. وما دام إعجازه فهو أحج وبالاختصاص أحق.. أنتهى كلام الماوردي مع بعض اختصار.

وقد أشار النبي ﷺ إلى ما ذكره الماوردي حيث قال فيما رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ– أنه ﷺ قال: "ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة"– والمعنى أنه ليس نبي من الأنبياء إلا أعطاه الله تعالى من المعجزات ما من شأنه إذا شوهد اضطر المشاهد إلى الإيمان به فإذا مضى زمنه انقضى، وإنما كان الذي أوتيت من المعجزات وحياً– أي قرآنا– أوحاه الله إلى مستمراً على مر الدهور ينتفع به كل جيل ويهتدي به في كل مكان، وغيره من الكتب السماوية ليس معجزاً من جهة نظمه وبلاغته ولا أراد الله حفظه من التحريف والتبديل فانقضت معجزات الأنبياء بانقضاء أوقاتها وهذا لأن الله تعالى لم يرد دوام شرائعهم.. وحصره صلى الله عليه وسلم معجزته في القرآن ليس لنفي غيره من المعجزات بل لتمييزه عنها بكونه باقياً مستمراً محفوظاً من التغيير والتبديل يقهر المعاند ويفحمه في كل

زمان.. وإلا فله ﷺ معجزات لا تحصى، منها ما وقع في حياته ﷺ، ومنها ما أخبر عن وقوعه بعده ولم يزل يقع منه في كل وقت.

والأخبار الواردة في هذه المعجزات منها ما بلغ حد التواتر لفظاً ومعنى. وشحنت بها كتب السنة وأفردها كثير من العلماء بالتأليف.

الكمال الإنساني

كما أن مقتضى الحياة في الحيوانات الإحساس باللذة لتطلبها وبالألم لتهرب منه، فأي كائن تجرد عن الإحساس المذكور لم يكن حيواناً بل جماداً فكذلك مقتضى الحياة الإنسانية. العمل والحكمة.. فمن خلت حياته عن ذلك لم يكن إنساناً بل حيواناً، لأنه فقد الخاصية التي امتاز بها عن غيره من الموجودات.

يقول الإمام الغزالي: لا كمال للإنسان إلا في العلم والحرية: أما العلم. فهو العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله وحكمه في ملكوت السموات والأرض وترتيب الآخرة على الدنيا، وأما الحرية فالخلاص من أسر الشهوات تشبهاً بالملائكة عليهم الصلاة والسلام: الذين لا يستفزهم الهوى ولا يستهويهم الغضب..

وقال ابن القيم: "كمال النفس المطلوب ما تضمن أمرين: أحدهما أن يصير هيئة راسخة وصفة لازمة لها. الثاني أن يكون صفة كمال في نفسه فإذا لم يكن كذلك لم يكن كمالاً فلا يليق بمن يسعى في كمال نفسه المنافسة عليه ولا الأسف على فوته وذلك ليس إلا معرفة بارئها وفاطرها ومعبودها وإلهها الحق الذي لا صلاح لها ولا نعيم ولا لذة إلا بمعرفته وإرادة وجهه. وسلوك الطريق الموصل إليه وإلى رضاه وكرامته. وأن تعتاد ذلك فيصير لها هيئة راسخة لازمة لها

وما عدا ذلك من العلوم والإرادات والأعمال فهي بين مالا ينفعها ولا يكملها وبين ما يعود بضررها ونقصها وألمها ولا سيما إذا صار هيئة راسخة لها فإنها تعذب وتتألم به بحسب لزومه لها".

وإن أردت التحقيق في هذا المقام فهناك بيانه:

الإنسان كما علمت من الفصول السابقة قد اختصه الله تعالى بنوعٍ من الحياة ممتاز وأكرمه بالعقل الذي يرى الغيب ويدرك ما وراء المادة والحس ويميز بين الأشياء بعضها عن بعض ويتفطن لما فيها من العبر والآيات.. وأعطاه مع ذلك الإرادة والاختيار والقدرة على العمل والكسب، فمن أهمل هذه المواهب الجليلة كلها ورضى لنفسه أن يعيش عاطلاً من العلم والعمل بالمرة فلاحظ له في الإنسانية ولا نصيب له في الكمال. إنما ينعت بالإنسانية ويستحق الوصف بالكمال من استثمر مواهبه واستعمل قواه كلا فيما خلقت له.

الحيوان يحس بالموجودات ولكن لا يعرف عللها وأسبابها ومواضع العبرة فيها يرى الأرض ويرى النبات وغير ذلك ولكن لا يعرف من أوجد ذلك ولا من أوجده هو نفسه لأنه لم يخلق له العقل الذي يدله على ذلك.

الحيوان إذا وقعت أمامه معجزة من المعجزات رآها إن كانت ترى وسمعها إن كانت تسمع لكن لا يعرف وجه دلالتها على نبوة من وقعت على يديه.

فإذا كان الإنسان بهذه المثابة يرى الموجودات ولا يعرف دلالتها على موجدها ويسمع القرآن الكريم ولا يعرف خاصته التي تميز بها عن كلام البشر.. ويرى سائر المعجزات أو يسمع بها ولا يعرف دلالتها على النبوة والرسالة. فأي شيء يمتاز به مثل هذا الإنسان عن الحمار الذي يركبه والبقرة التي يحرث بها الأرض.

الحيوان يجوع فيأكل ويغضب فيقاتل ويخاصم ويشتهي اللذة الجنسية فإذا اقتصرت حياة الإنسان على أن يأكل ويشرب ويغضب ويشتهي الملاذ الجنسية وينهمك فيها وينحبس في مضيق الماديات لم يتميز عن الحيوان بشيء.

فمبدأ الإنسانية إذن وأول مراتب الكمال أن ينظر الإنسان في نفسه وفيما حوله من آيات الله تعالى فيستدل بها على وجوده عز وجل ثم ينظر في أحوال الرسل عليهم الصلاة والسلام وما وقع لهم من المعجزات الخارقة للعادات فيذعن لرسالتهم ويصدق بدعوتهم ويقبل كل ما جاءوا به من الأوامر والنواهي والوعد والوعيد والبعث وحياة الآخرة وما فيها من النعيم المقيم والعذاب الأليم.

وإذا حصلت له هذه الجملة وخلصت له يجتهد في تحصيل اليقين بها وهو تحقق القلب بأحكام الغيب وغلبة الإيمان بكل ما جاء به الشرع على العقل حتى يصير الخبر كالمعاينة والمعتقد به كالمحسوس.

وهذا هو الكمال والسعادة الحقيقية لأن هذا اليقين متى غلب على عقل الإنسان وامتلأت به نفسه استتبع جميع المقامات المحمودة والأخلاق الفاضلة التي منها التوحيد. وهو أن يغلب على عقله وقلبه أن، لا مؤثر في العالم إلا الله تعالى. فيرى الأسباب والوسائط والمخلوقات في يد الله تعالى لا حكم لها وإنما هي بمنزله القلم في يد الكاتب.. ومنها اليقين بضمان الله تعالى الرزق لعباده كما قال تعالى "وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا"[1] فيعتقد أن ما قدر له من الرزق لا بد أن يساق إليه ويكون مجملاً في الطلب وينتفي عنه الحرص والطمع، ولا يأسف على ما فاته لعلمه أن ليس من قسمته ولا نصيبه ومنها اليقين بثواب الله تعالى على الطاعات وعقابه على المعاصي حتى يرى نسبة

---

[1] سورة هود الآية: ٦

الطاعات إلى الثواب كنسبة الخبز إلى الشبع ونسبة المعاصي إلى العقاب كنسبة السموم إلى الهلاك، فكما يحرص على تحصيل الخبز طلباً للشبع فيحفظ قليله وكثيره فكذلك يحرص على الطاعات كثيرها وقليلها وكما يجتذب كثير السموم وقليلها فكذلك يجتذب المعاصي كبيرها وصغيرها قليلها وكثيرها..

وبعبارة أخرى كمال الإنسان الحقيقي: أن تكمل قوته العلمية النظرية بأن يدرك الحقائق كما هي ويعرف عواقب الأمور دون تباطؤ في الفهم ولا تعثر بالأوهام.. وتكمل قوته العملية الإرادية بأن تكون متجاوبة مع قوته النظرية فيأخذ بتطبيق ما أشارت به ويسرع في تنفيذه بلا توان ولا تأخير.

مثال ذلك أن يعرف أن الله تعالى موجود عظيم جليل كريم وهاب فيحبه ويهابه ويراقبه ويعظمه ويستحي منه ويثق بوعده ووعيده. ويعرف أن القرآن الكريم كلامه ورسائله إلى خلقه فيصغي إليه بظاهره وباطنه، ويعتقد أن كل ما سماه فهو كما سمي وكل ما أخبر به فهو حق واقع لا محالة، فينفذ وصاياه ويؤدي ما نص عليه من حقوق الخلق وحقوق الخالق جل وعلا. ويعرف أن الجنة حق ويجزم بذلك فيشتد شوقه إليها ويرغب في العمل لها ويعرف أن النار حق فيخاف منها ويبتعد عن كل ما يوجب عذابها، وبالجملة يكون يقظ القلب صائب الفهم قوي الإرادة لا يخالف قوله فعله، ولا ظاهره باطنه.

وما أحسن قول شقيق بن إبراهيم البلخي ﷺ "وافقني الناس في أربعة أشياء قولاً وخالفوني فيها فعلاً. أحدها أنهم قالوا إننا عبيد الله تعالى ويعملون عمل الأحرار– يعني لا يطيعونه ولا يتقيدون بشرعه– والثاني قالوا إن الله كفيل لأرزاقنا ولا تطمئن قلوبهم إلا مع شيء من الدنيا، والثالث قالوا إن الآخرة خير من الدنيا وهم يجمعون المال للدنيا– يعنى ولا يجمعون الحسنات للآخرة– والرابع قالوا لا بد لنا من الموت ويعملون أعمال قوم لا يموتون"....

لماذا كفروا؟

فإن قلت إذا كان الحق موجوداً والطريق إليه ممهداً فلماذا انقسم الناس إلى قسمين مؤمنين وكافرين..؟

قلت: سئل مثل هذا السؤال الإمام علي بن أبي طالب سأله عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنهما فقال: أخبرنا يا أمير المؤمنين على ماذا بني الكفر؟ فقال: على الجفاء والعمى والغفلة والشك، فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت العلماء. ومن عمى نسي الذكر، ومن غفل حاد عن الرشد، ومن شك غرته الأماني فأخذته الحسرة والندامة وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب.

أخبر ﷺ أن الكفر له أسباب منها الجفاء الذي يحمل على احتقار الحق والجهر بالباطل ومقت العلماء ومنشؤه فرح الإنسان بما عنده من العلم وغروره بعقله فلا يقبل نصحاً ولا يرى به حاجة إلى الإرشاد والتعليم من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أو غيرهم. كما حكاه الفخر عن بعض الفلاسفة وقد كان في زمن موسى عليه الصلاة والسلام قيل له ألا تذهب إليه وتعرف ما عنده، فقال مثلنا لا يحتاج إلى الأنبياء.

ومنها العمى، أي عمى البصيرة. فمن عميت بصيرته نسي التذكر والاعتبار وأخطأ الطريق الموصل إلى المقصود فلا يعرف أي طريق يسلك. ولا أي حجة يعتمد عليها فيطلب المعقول من طريق المحسوس ويزن الأشياء بغير موازينها، أو يخل بالشروط المعتبرة في البراهين فلا يهتدي لحق ولا يرعوي عن باطل.

ومنها الغفلة التي تنشأ عن الاستغراق في أشغال الدنيا وتدبير مصالحها

والانهماك في شهواتها فلا يجد الإنسان فراغاً يرجع فيه لعقله وينظر فيما حوله من الآيات.

ومنها الشك في أصول الأدلة ومقدمات البراهين.. وهذه بلية يبتلي الله تعالى بها من لا نصيب له في السعادة فلا يصل إلى يقين في شيء ما. كالذي يشك في معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولا يعتقد أنها اختصاصات إلهية لتعضيدهم وتأييد دعوتهم، ويتوهم أنها من قبيل السحر أو من طوالع النجوم أو نحو ذلك.

وقد ضرب الإمام رضي الله تعالى عنه مرة للدنيا والآخرة ثلاثة أمثلة قال: ها ككفتي الميزان إذا رجحت إحداهما طاشت الأخرى، وكالضرتين إذا أرضيت إحداهما أسخطت الثانية، وكالمشرق والمغرب من سار في طريق منهما بعد عن الآخر.. يعني أن من صرف عنايته إلى شيء حتى تعمق فيه قصرت بصيرته عن غيره.

وقال الشيخ ابن تيمية: ولا عجب ممن لم تؤثر فيه كثرة معجزاته صلى الله عليه وسلم الباهرات، ودلائله الظاهرات، وآياته البينات التي تبلغ الألوف المؤلفة كما بينه العلماء فإن ضلالهم الذي نشأوا عليه قد امتزج باللحم والدم وسري في أرواحهم سريان الماء في العود، فلا تنفعهم بعد هذا كثرة الحجج وقوة البراهين.. أما من سبقت له السعادة في الأزل وألقي الله تعالى في قلبه نور الهدى فإنه يقنعه أيسر شيء كما أنك لو عبرت بجميع العبارات، ونوعت أساليب الكلام على أن تفهم الأعمى الذي خلقه الله تعالى أعمى هذه الألوان الكونية المختص إدراكها بالبراء لا يمكن أن يصل إلى ذلك.. أما من خلقه الله تعالى بصيراً أو كشف عن بصره صغيراً أو كبيراً فإنك تقدر على أن تفهمه ذلك بأيسر العبارات.

وقال يحيى بن معاذ الرازي: القلب قلبان: قلب قد احتشى بأشغال الدنيا

حتى إذا حضر أمر من أمور الطاعة لم يدر صاحبه ما يصنع لشغل قلبه بالدنيا. وقلب قد احتشي بأشغال الآخرة حتى إذا حضر أمر من أمور الدنيا لم يدر صاحبه ما يصنع لذهاب قلبه في الآخرة.

وفي كتاب الإبريز عن العارف الدباغ: ليس في مخلوقات الله تعالى كلها أحسن من خلقة بني آدم فذواتهم أحسن ذوات المخلوقات وأرفعها وأقومها ومع ذلك فقد جرى في سابق علمه تعالى، أن جعل طائفة منهم إلى الجنة وطائفة إلى النار، وذلك بسبب حجب بصائرهم عنه تعالى: فإنه تعالى أولاً جعل في تلك الذات الروح وسرها الذي هو العقل ومعرفة الله تعالى ونور الإيمان به مع المشاهدة، ورفع جل وعلا الحجاب بينه وبينها فحصلت لها المعرفة بخالقها على الوجه الأكمل.. فلما أراد الله تعالى إنفاذ الوعيد وضع الحجاب على تلك الذات فزالت المشاهدة، ووقعت القطيعة وياليتها حيث وقعت لها القطيعة لم تتعلق بشيء، فإن ذلك خير لها مما وقعت فيه. وذلك أنها نظرت إلى خيط نور العقل الذي بقي فيها فتعلقت به وجعلته عمدتها وسندها في كل شيء فزادها ذلك قطيعة. انتهى.

أي أنهم فرحوا بما عندهم من العلم واغتروا بما لهم من العقل فلم يصغوا إلى دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولم يستضيئوا بأنوار الشرائع المنزلة لأن الله تعالى أراد حرمانهم وقطيعتهم نعوذ بالله تعالى من كل سوء ونسأله الرحمة والرضا.

وما أحسن قول من قال من العارفين: "من لحقته العقول– أي كيفته وعرفت حقيقته– فهو مقهور إلا من جهة الإثبات– يعني اعتقاد وجوده مع العجز عن معرفة حقيقته– ولولا أنه تعرف إليها– أي العقول– بالألطاف ما عرفته".

وقول الآخر: (لا يعرف الله تعالى إلا من تعرف إليه ولا يوحده إلا من توحد له، ولا يؤمن به إلا من لطف به، ولا يصفه إلا من تجلى لسره، ولا يخلص

له إلا من جذبه إليه، ولا يصلح له إلا من اصطنعه لنفسه).

فسبحان من احتجب عن بصائر العميان- كما قال الإمام الغزالي- غيرة على جماله وجلاله أن يطلع عليه إلا من سبقت له منه الحسنى الذين هم عن نار الحجاب مبعدون وترك الخاسرين في ظلمات العمى يتيهون، وفي مسارح المحسوسات وشهوات البهائم يترددون "يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآَخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ"،[1] "الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ"[2]

فلا يغرنك جحود الجاحدين، وضلال الضالين، ولا يهولنك ما عندهم من الكياسة والحذق في علوم الحساب والهندسة والطب ولا ما وضعوه من السياسات وأظهروه من المكتشفات والمخترعات فليس في عقولهم متسع لطلب الحق، ولا في قلوبهم رغبة لمعرفته لأنهم سخروا عقولهم لخدمة شهواتهم وحظوظ أنفسهم، واستعملوها في السيطرة والتسلط على الناس واغتصاب حقوق الشعوب، على أن العقول مهما بلغت من الذكاء والحذق فإنها لا تستغني عن هداية الله تعالى وتوفيقه. "وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا"[3]

كفروا بالرحمن فاستعبدهم الشيطان

الإنسان في هذه الحياة الدنيا لا يقف موقفا سلبياً، ولا يعيش بغير عقيدة وعمل فمن لم يؤمن بالله تعالى آمن بالشيطان الرجيم من حيث لا يشعر.. من لم يتخذه عز وجل إلهاً اتخذ إلهه هواه.. ومن لم يعمل للآخرة عمل للدنيا ولا بد، فقلب الإنسان مثله مثل القدح، والقدح إن خلا من الماء لم يخل من الهواء. فكذلك القلب إن خلا من الإيمان وتوحيد الله تعالى لم يخل من العقائد الفاسدة

---

[1] سورة الروم الآية ٧

[2] سورة لقمان الآية ٢٥

[3] سورة النور الآية ٢١

والأفكار الخبيثة.. والنفس كالرحا إن قدمت لها حباً طحنته، وإن قدمت لها حصا طحنته.

قال الله تعالى: "وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ"(١)

وقال ﷺ: "الناس غاديان فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها" ومن خطبة الإمام علي ﷺ: "ألا وإنه من لم ينفعه الحق يضره الباطل ومن لم يستقم بالهدى يجر به الضلال".

وعن الإمام الشافعي ﷺ: النفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل. وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى في رسالة "العبودية":

كل من استكبر عن عبادة الله تعالى لا بد أن يعبد غير الله فإن الإنسان حساس بالإرادة.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ: (أصدق الأسماء حارث وهمام" والحارث الكاسب الفاعل.. والهمام– فعال من الهم– والهم أول الإرادة، فالإنسان له إرادة دائمًا وكل إرادة فلا بد لها من مراد تنتهي إليه فلابد لكل عبد من مراد محبوب هو منتهي حبه وإرادته. من لم يكن الله تعالى معبوده ومنتهي حبه وإرادته، بل استكبر عن ذلك فلا بد أن يكون له مراد محبوب يستعبده غير الله تعالى فيكون عبداً لذلك المراد المحبوب.

وقد ورد في الأثر: "إن الله تعالى يبغض الشاب الفارغ" لأن الشاب إذا تعطل عن عمل بشغل باطنه ولو مباحاً يستعين به على دينه كان ظاهره فارغاً ولا يبقي قلبه فارغاً أبداً بل يصول الشيطان فيه ويجول ويعشش فيه ويبيض ويفرخ ثم تتزاوج أفراخه وتبيض مرة أخرى وتفرخ وهكذا يتوالد نسل الشيطان

(١) سورة الزخرف آية: ٣٦

توالداً أسرع من توالد سائر الحيوانات. وقد لحظ هذا من قال من المستشرقين. ما من إنسان يستطيع أن يكون غير مؤمن فقد ركب الإنسان من الناحية النفسانية بحيث أصبح مضطراً إلى الإيمان بالله أو بغيره.

حماية الفطرة

نريد بالفطرة هنا "الجهاز الروحي" الذي منحه الله تعالى للإنسان واختصه به دون سائر الحيوانات وهو جملة أمور:

منها وهو رأسها وأساسها، العقل الذي استودعه الله تعالى العلوم الضرورية التي تدرك بالبداهة ولا تحتاج إلى كسب وتعليم. ومكنه بواسطة ذلك من اكتساب العلوم النظرية التي تدرك بالفكر والنظر وجبله على التصديق بالغيب متى توفرت له الأسباب التي تقتفي ذلك.

ومنها الغرائز التي يحب بها الإنسان ما وافته ويبغض ما خالفه وآذاه. ومنها الحواس الظاهرة من السمع والبصر، والذوق والشم واللمس. والحواس الباطنة الحافظة والمتخيلة.

ومنها الإرادة التي تنبعث بإشارة المال لما فيه المصلحة والعاقبة المحمودة.. ومنها الحياء الذي يبعث على فعل المستحسنات وترك المستقبحات..

هذه الفطرة الإنسانية منحة إلهية عظيمة اختص الله تعالى بها الإنسان ليهتدي بها إلى معرفته عز وجل وقبول ما جاء به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. فكما أنعم الله تعالى على الإنسان بالنعم الحسية، من أرض تقله، وسماء تظله، وهواء يعيش به، ويسر له أسباب الرزق الذي يقيم بدنه.. وجهزه بأجهزة جسمانية ظاهرة "كجهاز التنفس" "والجهاز الهضمي" وغير ذلك من لوازم بنيته وضرورات حياته.. فكذلك أنعم عليه بهذه الفطرة وهذا الجهاز

الروحاني الكبير الذي يكتسب به المعارف والعلوم ويحيا به الحياة الروحية الطيبة..

قال الله عز وجل: "وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"[1]

فوجب والحالة هذه العناية بالفطرة الإنسانية والمحافظة عليها حتى تبقى سليمة مستقيمة بعيدة عن الخلل والاضطراب.. وذلك إنما يكون بتعهد الطفل من صغره وتلقينه العقائد الصحيحة، وتعويده على الأخلاق الدينية الفاضلة.

ولا تظن أن قوله ﷺ "كل مولود يولد على الفطرة" معناه أن كل مولود يولد كاملاً بالفعل غير محتاج إلى التربية والتعليم. بل معناه أن كل مولود يولد معتدلاً قابلاً للمعرفة والكمال.

فمثل الفطرة مثل البدن. فكما أن الأصل في البدن اعتدال أمره وإنما تعتريه المضرة من الأغذية والأهوية الفاسدة فكذلك الأصل في الفطرة والنفس الباطنة الاستقامة والاعتدال.. وكما أن البدن لا يخلق في الابتداء كاملاً وإنما يكمل بالتغذية والتربية فكذلك الفطرة تخلق ناقصة قابلة للكمال وكمالها بالتربية الدينية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم النافع وإلا تعرضت للفساد والاضمحلال.

يقول الحكيم الترمذي: قد ذكر الله تعالى جزاء من يقطع على الناس مكاسبهم الدنيوية بقوله عز وجل: "إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ

---

[1] سورة النحل الآية: ٧٨

يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ"[1]، فماذا يستحق من الجزاء من يقطع على الناس سبيل سفرهم إلى الله تعالى.

ولا شيء يقطع سبيل السفر إلى الله تعالي كإهمال الفطرة الإنسانية وعدم تعهدها بالتربية وغرس المبادئ القويمة، وتركها نهبة للناهبين وعرضة للمفسدين المضلين.

قال ابن أبي زيد في مقدمة رسالته: واعلم أن خير القلوب أوعاها للخير، وأرجى القلوب للخير ما لم يسبق الشر إليه وأولى ما عني به الناصحون، ورغب في أجره الراغبون، إيصال الخير إلى قلوب أولاد المؤمنين ليرسخ فيها وتنبيههم على معالم الديانة وحدود الشريعة ليراضوا عليها، وما عليهم أن تعتقده من الدين قلوبهم، وتعمل به جوارحهم، فإنه روى أن تعلم الصغار لكتاب الله يطفئ غضب الله، وأن تعليم النشء في الصغر كالنقش على الحجر، وكتب شارحه عند قوله وأرجى القلوب للخير ما لم يسبق الشر إليه ما نصه: لأنه إذا لم يسبق الشر إليه قبل ما يرد عليه من الخير أحسن قبول وإذا سبق إليه اعتقاد الشر عظمت الحيلة في إزالته كالآنية الجديدة يجعل فيها القطران فلا تزول منها رائحته إلا بعد تعب ومشقة.

الجهاد

قال الله تعالى في كتابه العزيز: "إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا"[2]

وقال ﷺ في الحديث الصحيح (إن الله تعالى مستخلفكم في الدنيا فينظر

---

[1] سورة المائدة الآية: ٣٢

[2] سورة الكهف الآية ٧

ماذا تعملون) فهذه الحياة الدنيا دار محنة وميدان جهاد.

ومن تراجم الإمام البخاري في صحيحه (باب من جاهد نفسه في طاعة الله تعالى) ثم ذكر حديث معاذ رضي الله تعالى عنه وهو قوله (كنت رديف النبي ﷺ ليس بيني وبينه إلا آخرة الرحل فقال يا معاذ، قلت لبيك يا رسول الله وسعديك.. ثم سار ساعة ثم قال يا معاذ؛ قلت لبيك يا رسول الله وسعديك.. ثم سار ساعة.. ثم قال يا معاذ، قلت لبيك يا رسول الله وسعديك؛ قال هل تدري ما حق الله على عباده؟ قلت الله ورسوله أعلم؛ قال حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً.. ثم سار ساعة ثم قال يا معاذ بن جبل؛ قلت لبيك يا رسول الله وسعديك، قال هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوه- أي المذكور من العبادة وعدم الإشراك - قلت الله ورسوله أعلم، قال حق العباد على الله أن لا يعذبهم). وفي رواية (أن يغفر لهم ولا يعذبهم) وفي أخرى (أن يدخلهم الجنة)

فبين عليه الصلاة والسلام أن طاعة الله تعالى باجتناب معاصيه وفعل مراضيه هو الحق الواجب على العباد لله تعالى لأنه خلقهم ورزقهم وكرمهم وفضلهم على كثير من خلقه بالعقل والفهم والبيان باللسان والكتابة والإشارة والخط، وسخر لهم ما في السموات وما في الأرض، وعرفهم ما ينفعهم وما يضرهم، ومكنهم من الصنائع وحبب لكل منهم صنعة خاصة لينتظم شملهم وتسعد جماعتهم.. فمقتضى عبوديتنا له عز وجل أن نعبده ونطيعه، ولا نشرك به شيئاً كما قال الله عز وجل "وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ".. وقد تكرم سبحانه وتفضل إذا نحن فعلنا ذلك أن يغفر ذنوبنا، ولا يعذبنا ويدخلنا الجنة. وقد سمي ذلك النبي ﷺ حقاً للعباد على الله. لأن مقتضى كرمه وفضله أن يفعل ذلك مع أنه تعالى لو جعل جزاء عبادتنا له في الدنيا أن خلقنا ورزقنا لكان كافياً

ولكنه زاد الفضل وأسبغ النعمة ظاهراً وباطناً.

وإنما ترجم البخاري لهذا الحديث الشريف بترجمته السابقة للإشارة إلى أن التوحيد والعبادة فيه مجاهدة للنفس.. التوحيد مجاهدة عقلية باطنية القطع غواشي الوهم والحس.. والعبادة مجاهدة قلبية بالإخلاص والتواضع، واليقين، والخشية، والصبر، والرضا، والمحبة، والتوكل، والزهد.. إلخ، وبدنية بفعل الصلاة والصوم والحج والزكاة والكف عن المحرمات فتأمل فقه البخاري ودقيق نظره.

وأخرج قبيل ذلك بأبواب يسيرة حديث "حجبت النار بالشهوات وحجبت الجنة بالمكاره"– بريد ﷺ أن النار لا نجاة منها إلا بترك الشهوات وهي الأمور المستلذة الممنوع منها شرعاً كالزنا والخمر والملاهي وما إلى ذلك. مما ورد الشرع بذمه والنهي عنه.. والجنة لا يتوصل إليها إلا بتحمل المكاره ومجاهدة النفس في العبادة والصبر على مشاقها والمحافظة عليها. وهذه سنة الله تعالى وحكمته في خلقه وهي أن السيادة والكمال في الدنيا والآخرة إنما يتحقق بتحمل المشاق. كما قال الشاعر:

لولا الشدائد ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتال

وقد مثل الحكماء النفس في البدن بوال بعثه مولاه إلى ثغر من الثغور يراعي أحواله، وعقل الإنسان خليفة مولاه ضمه إليه ليسدده ويرشده و يشهد له وعليه ما يفعله إذا عاد لحضرة مولاه ومثل البدن وما ركب فيه من الجوارح والحواس بمنزلة فرس دفع إليه ليركبه، ومثل شهوته مثل سائس ضم إليه لتعهد فرسه، والقرآن الكريم بمنزلة كتاب أتاه من مولاه وقد ضمن كل ما يحتاج إليه الإنسان عاجلاً وآجلاً كما وصفه الله تعالى بقوله "وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا

لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ"[1].

والنبي عليه الصلاة والسلام رسول أتاه من مولاه بالكتاب ليبين له ما يشكل عليه منه فقبيح أن ينسى هذا الوالي مولاه، ويمهل خليفته – العقل– فلا يراجعه فيما يبرمه وينقضه، ويصرف همه كله إلى تفقد فرسه وسائسه، ويقيم سائس فرسه مقام خليفة ربه.

وقالوا: إنما خص الإنسان بالقوى الثلاث، الشهوة، والغضب، والعقل ليسعى في فضيلتها: وفضيلة القوة الشهوية تطالبه بالمكاسب التي تنمية، وفضيلة القوة الغضبية تطالبه بالمجاهدة التي تحميه، وفضيلة القوة المقلية تطالبه بالعلم الذي يهديه، فحقه أن يتأمل ذلك ويسعى إلى ما يفيده السعادة وينقله من الذل إلى العز، ومن الفقر إلى الغنى، ومن الضعة إلى الرفعة، ومن الخمول إلى النباهة دنيا وأخرى.

قال الإمام أحمد: قبيح من أعطى شمعة يستضيء بها أن يطفئها ويمشي معتمداً على غيره– يعني العقل–.

فيجب على الإنسان استثمار عقله في التدبر والاعتبار، والتفقه في الدين وتفهم آيات الله تعالى التكوينية والتنزيلية. كما يجب عليه استثمار قوته وإرادته في العمل المفيد، وإذا كانت مطالب الدنيا الحقيرة لا تحصل ولا تتم إلا بكد اليمين، وعرق الجبين، فطالب الآخرة وملكها العظيم أولى بالتعب، وأحق بالاجتهاد.

فانفض عنك غبار الكسل أيها الرجل واحذر من المماطلة والتسويف، واسمع نصيحة نبيك ﷺ حيث يقول: "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من

---

[1] سورة النحل آية ٨٩

المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز". واعلم أن أمر الدنيا والآخرة مبني على الجهد والعمل، فلا ينال مطلوب فيهما إلا بتعب ومشقة، كما قال تعالى "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ"[١]

وهذا إخبار عما سبق في عامه القديم، وجرى به تدبيره الحكيم، لا محيص منه ولا حيلة في رده، والإنسان بما ركب فيه من الغرائز، وما منح من العلم والإرادة لا بد أن يحس بما حوله، ويتأثر بما يرى ويسمع، ولا بد أن بريد ويسعى، إما للخير وإما للشر. وقد قضت حكمة الله تعالى وجرت عادته أن يمد كل عامل ويهيئ له أسباب ما يريده ويختاره. قال تعالى: "كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا"[٢]

معرفة الله تعالى

معرفة الله تعالى هي غاية الغايات، وأهم المقاصد. العلوم كلها لها خدم، وهي الحرة المصدوقة.

روى أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال يا رسول الله علمني من غرائب العلم، فقال ﷺ: ما صنعت في رأس العلم، فقال وما رأس العلم؟ قال ﷺ: هل عرفت الرب تعالى؟ قال: نعم. قال فما صنعت في حقه؟ قال: ما شاء الله. فقال ﷺ: هل عرفت الموت؟ قال: نعم. قال: فما أعددت له؟ قال: ما شاء الله. قال ﷺ: أذهب فأحكم ما هناك ثم تعال نعلمك من غرائب العلم".

وقيل إنه رؤي صورة حكيمين من الحكماء في بعض المساجد وفي يد أحدهما رقعة فيها: إن أحسنت كل شيء فلا تظنن أنك أحسنت شيئاً حتى

---

[١] سورة البلد الآية: ٤.

[٢] سورة الإسراء الآية: ٢٠.

تعرف الله وتعلم أنه مسبب الأسباب وموجد الأشياء. وفي يد الآخر، كنت قبل أن أعرف الله تعالى أشرب وأظمأ حتى إذا عرفته رويت بلا شرب.

واعلم أن الله تعالى ذات حقيقي موجود بصفاته العليا، وأسمائه الحسنى بل هو أظهر الموجودات وأكملها وأشرفها.. وهو الحي القيوم القائم بنفسه والقائم به كل موجود سواه. لا يحجبه بعد ولا تخلل حائل.. لو كشف عنا الغطاء لرأيناه في هذه الحياة الدنيا كما سنراه في الآخرة ظاهراً بجماله وجلاله من غير تكييف ولا تحديد.

وقد كان عز وجل قبل أن يخلق الخلق كنزاً مخفياً، على ما ورد في بعض الآثار– أي غير معروف لأحد، إذ لا شيء هناك معه.. فلما خلق الخلق وأراد أن يكلفهم بمعرفته وعبادته أعطاهم العقول ومكنهم من النظر والاستدلال، وأرسل إليهم الرسل عليهم الصلاة والسلام بالآيات البينات، والمعجزات الباهرات، ليدلوهم عليه ويعرفوهم بصفاته وأسمائه.. ولو شاء سبحانه أن يعرفهم نفسه بغير واسطة لفعل، بأن يكشف لهم عن جماله وجلاله فيروه معاينة بضرورة حواسهم، ولو شاء أن يسمعهم كلامه القديم لأسمعهم. ولكن اقتضت حكمة الله عز وجل أن يمتحن البصائر والعقول في هذه الحياة الدنيا لتكون معرفته بآياته وآثار صنعته أبلغ في الحكمة وأظهر في تباين الرتبة.

قال ابن عطاء الله السكندري في (الحكم): أمرك في هذه– يعني الدنيا– بالنظر في مكوناته وسيكشف لك في تلك– يعني الآخرة– عن كمال ذاته. وجعل الراغب معرفة الله تعالى على قسمين:

معرفة إجمالية عامية، قال: إنها مركوزة في النفوس الإنسانية وهي معرفة كل أحد أنه مصنوع وأن له صانعاً صنعه ونقله في الأحوال المختلفة وهي المشار

إليها بقوله تعالى: "فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا"(١)، وبقوله عز وجل: "صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً"(٢) وقوله: "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى"[٣] فهذا القدر من المعرفة في نفس كل أحد، ويتنبه العاقل إليه إذا نبه عليه، ومن هذا الوجه قال تعالى:"وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ"[٤] وقال في مخاطبة المؤمنين والكافرين: "ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ"[٥] وقال بعده: "ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ"[٦]

ومعرفة تفصيلية مكتسبة، وهي معرفة توحيده وما يجب أن يثبت له من الصفات، وما يجب أن ينفي عنه وهذه هي المعرفة التي دعي إليها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ولهذا قالوا كلهم: قولوا «لا إله إلا الله، ولم يدعوا أحدا إلى نفس المعرفة بالله تعالى، بل دعوا إلى توحيده ومعرفة صفاته.

وفي هذا يقول بعض المستشرقين: إن الإيمان سابق على الكنائس والمذاهب– أي موجود في الفطرة قبل نزول الشرائع.

ويقول بعضهم أيضاً: إن الإنسان يهتدي إلى الله تعالى بالوحي وبغير الوحي، وإن كان الوحي أهدى وأفضل.

وعن الإمام أبي القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه: المعرفة معرفتان معرفة تعرُّف، ومعرفة تعريف. معنى التعرف أن يعرفّهم نفسه تعالى بواسطة تجليه على

---

(١) سورة الروم الآية: ٣٠

(٢) سورة البقرة الآية: ١٣٨.

(٣) سورة الأعراف الآية: ١٧٢

(٤) سورة الزمر الآية: ٣٨

(٥) سورة النحل الآية ٥٣

(٦) سورة النحل الآية ٥٤

قلوبهم، ثم يعرفهم الأشياء به، ومعنى التعريف أن يريهم آثار قدرته في الآفاق وفي أنفسهم، ثم يحدث فيهم لطفاً حتى تدلّهم الأشياء أن لها صانعاً حكيماً.

والأولى معرفة الخواصّ، والثانية معرفة عوامّ المؤمنين.

وهذا معنى قول الغزالي في "الإحياء" والواصلون إلى هذه الرتبة يعني المعرفة بالله تعالى، ينقسمون إلى الأقوياء، ويكون أول معرفتهم لله تعالى. ثم به يعرفون غيره، وإلى الضعفاء ويكون أول معرفتهم بالأفعال ثم يترقون منها إلى الفاعل. وإلى الأول الإشارة بقوله تعالى: [شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ(١)] ومنه نظر بعضهم حيث قيل له: بم عرفت ربك؟ قال عرفت ربي بربي، ولولا ربي لما عرفت ربي.. وإلى الثاني الإشارة بقوله تعالى: [سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ(٢)] وبقوله عز وجل: [قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ(٣)] وبقوله عز وجل: [أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ(٤)] وبقوله تعالى: [الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ](٥)

وهذا الطريق هو الأسهل على الأكثرين، وهو الأوسع على السالكين وإليه أكثر دعوة القرآن عند الأمر بالتدبر والتفكر والاعتبار، والنظر في آيات خارجة عن الحصر.

قلت: وهذا الطريق الأسهل على الأكثرين، الأوسع على السالكين هو

(١) سورة آل عمران الآية: ١٨

(٢) سورة فصلت الآية ٥٣

(٣) سورة يونس الآية ١٠١

(٤) سورة الأعراف الآية: ١٨٠

(٥) سورة تبارك الآيتان ٥: ٣، ٤

الطريق الطبيعي، والمنهاج الفطري الذي ذكرناه فيما سبق تحت عنوان "كيف تفهم" وقلنا هناك إنه لا جديد فيه على الإنسان، ولا شيء فيه أكثر من استحضار العلوم الضرورية والمبادئ الفطرية المركوزة في النفس.. ثم العمل بمقتضاها.. كما يفعل الإنسان في شئونه الدنيوية، وكما يجري عليه الناس في صناعاتهم ومعاملاتهم ومخاطباتهم.

ولا بأس أن نذكر لك زيادة على ماسبق بعض نماذج من هذه الطريقة الفطرية لتزداد معرفة وإيماناً بأنه عز وجل أظهر الموجودات وأجلاها على الإطلاق، وأن معرفته سبحانه هي أقرب المعارف إلى النفوس وأسبقها إلى الأذهان لأنها مبنية على أمر ضروري مركوز في كل فطرة، وهو افتقار كل صنعة لصانعها.. حتى قال الإمام الفخر "في المعالم": إن العلم بهذه القضية مركوز في طبع الصبيان فإنك إذا لطمت وجه الصبي حيث لا يراك وقلت هذه اللطمة من غير فاعل البتة لايصدقك. بل في فطرة البهائم، فإن الحمار إذا أحس بصوت الخشبة فزع لأنه تقرر في فطرته أن حصول صوت الخشبة بدون الخشبة محال...

قال الإمام أبو الحسن الأشعري: الإنسان إذا فكر في خلقته من أي شيء ابتدأ وكيف دار في أطوار الخلقة طوراً بعد طور حتى وصل إلى كمال الخلقة،

وعرف يقيناً أنه بذاته لم يكن ليدبر خلقته وينقله– أي ينقل نفسه– من درجة إلى درجة، ويرقيه من نقص إلى كمال. علم بالضرورة أن له صانعاً عالماً قادراً إذ لا يتصور حدوث هذه الأفعال المحكمة من طبع؛ لظهور آثار الاختيار في الفطرة وتبين آثار الإحكام في الخلقة.

وكتب الغزالي في كتابه "المقصد الأمني في شرح أسماء الله الحسنى" شرحاً لأسمه تعالى (الباطن) واسمه (الظاهر) قال: الله سبحانه وتعالى باطن إن طلب من

إدراك الحواس وخزانة الخيال، ظاهر إن طلب من خزانه العقل بطريق الإستدلال. فإن قلت: أما كونه باطناً بالإضافة إلى إدراك الحواس فظاهر– أي واضح لا خفاء فيه – وأما كونه ظاهراً بالاضافة إلى إدراك العقل فغامض إذ الظاهر ما لا يتمارى فيه ولايختلف الناس في إدرا كه وهذا – يعني وجود الله تعالى– مما وقع فيه الريب لكثير من الخلق فكيف يكون ظاهراً؟ فأعلم أنه إنما يخفي مع ظهوره لشدة ظهوره. فظهوره سبب بطونه، ونوره هو هو حجاب نوره فكل ما جاوز عن حده انعكس إلى ضده.. ولعلك تتعجب من هذا الكلام وتستبعده ولاتفهمه إلا بمثال، فأقول: لو نظرت إلى كلمة واحدة وكاتب يكتبها لإستدللت على كون الكاتب عالماً قديراً سميعاً بصيراً، واستفدت منها اليقين بوجود هذه الصفات لذلك الكاتب، بل لو وجدت كلمة مكتوبة –يعني من غير أن ترى كاتبها– لحصل لك يقين قاطع بوجود كاتب لها عالم قادر سميع بصير حي، ولم يدل عليه – أي الكاتب المذكور– إلا صورة واحدة، فكما شهدت هذه الكلمة شهادة قاطعة بصفات الكاتب فما من ذرة في السموات والأرض من فلك وكوكب وشمس وقمر، وحيوان ونبات، وصفة وموصوف إلا وهي شاهدة على نفسها بالحاجة إلى مدبر دبرها، وخالق خلقها وقدرها وخصصها بخصوص من صفاتها. بل لاينظر الإنسان إلى عضو من أعضاء نفسه، وجزء من أجزائه ظاهراً وباطناً بل إلى صفة من صفاته، وحالة من حالاته التي تجرى عليه قهراً بغير اختياره، إلا ويراها ناطقة بالشهادة لخالقها وقاهرها ومدبرها.. وكذلك كل ما يدركه بحواسه فى ذاته وخارجاً عن ذاته. ولو كانت الأشياء مختلفة فى الشهادة يشهد بعضها ولايشهد بعضها لكن اليقين حاصلاً للجميع. ولكن لما كثرت الشهادات حتى اتفقت خفيت وغمضت لشدة الظهور".

وقال العلامة الشيخ مصطفى صبري شيخ الإسلام للدولة العثمانية سابقاً:

"إن هذه البيوت والمنازل التى يسكنها الناس فى المدن والقرى من قصور الملوك إلى أكواخ الفقراء إذا كان لابد لكل منها من بان فمن الذي بنى السموات والأرض؟ ومن هو مالكها المتصرف فيها، والمهيمن عليها، وفاعل هذه الأفعال البديعة التى يتضمنها الكون؟ فالذين لايؤمنون بوجود خالق الكون واضع نظمه مثلهم كمثل المنكرين لوجود من بنى تلك البيوت والقصور، القائلين بأنها مبنية من نفسها ما داموا لم يروا بانيها وهو يبنيها. ونحن المؤمنين بالغيب تحت إشراف العقل وإرشاده نعترف عند رؤية البناء بوجود الباني وإن لم نره. فالفرق بيننا وبينهم بسيط إلى هذا الحد.. فهل يسع الملاحدة أن يدَّعوا إمكان وجود بيت أو قصر من تلك البيوت والقصور التى هى صنع البشر بنفسها من غير وجود بانٍ وصانع؟

فإن لم يسعهم ذلك فكيف يسعهم القول بوجود صرح العالم بسمائه وأرضه بنفسه من غير وجود بانيه؟ أليس للسموات والأرض أهمية كأهمية واحد من البيوت المبنية بأيدي البشر حتى تستغنيا عما لايستغنى عنه من الباني.

أم كان استغناؤهما عن البانى لكونهما فى غاية العظمة والبداعة؟ أما الاحتمال الأول وهو كونهما فى الأهمية دون البيوت المبنية بأيدي البشر فباطل بالبداهة، أما الاحتمال الثاني، وهو أن يكون البناء الأعظم والأبدع مستغنياً عن الباني حين كان أقل البنيان وأحقره غير مستغن عنه ففي غاية البعد من العقل..

لا. لا. إن القائلين بإستغناء العالم عن الصانع لم يقولوا به لتفاهته ولا لكونه فى غاية العظمة. بل لأنهم وجدوا صرح العالم حاضراً أمام أعينهم مصنوعاً من غير حاجة إلى نشدان صانع له، ولو لم يجدوه حاضراً لما وسعهم القول

بوجود أصغر جزء منه من غير صانع. فسبب إستغناء العالم عندهم هو وجوده من غير حاجه إليه فى نظرهم، فهم ليسوا بأذكياء لحد أن يتنبهوا لما فى هذا التعليل من المصادرة على المطلوب..)

ومما تجب ملاحظته أن حياة الكاتب وقدرته وعلمه وإرادته، ومثله الباني لا شك فيها عندنا من غير أن يتعلق حس البصر بحياته وقدرته وعلمه وإرادته إذ هذه الصفات لاتدرك بشيء من هذه الحواس الخمس الظاهرة. وإنما عرفناها إستدلالاً ببنائه وكتابته.. فالقائل كيف أصدق بإله غير منظور ولا محسوس إن كان لايصدق بحياة الكاتب والباني وقدرتهما وعلمهما فقد خرج عن طور العقلاء وصار- حماراً برجلين- كما قال الغزالي... وإن صدق بهذه الصفات وهي غير منظورة ولا محسوسة لزمه التصديق بعلم الله تعالى وقدرته وحياته وإرادته، والعلم بدون ذاتٍ عالمة. والإرادة بدون مريد محال بديهي الإستحالة، فلا محيص من التصديق بوجود الله تعالى [أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ[1]]. فالحق سبحانه وتعالى لا تدركه الأبصار ولا الحواس الظاهرة كما قال جل شأنه [لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ[2]]. وإنما تدركه العقول. أي تثبت وجوده وتقر بذلك وأما حديث "إن الله احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار" فالمراد أن العقول لاتدرك حقيقته ولا تصل إلى كنه ذاته.

وقد جعل الله سبحانه الدنيا دار امتحان حيث حجب الأبصار عن رؤيته فيها مع أن هذه الرؤية ممكنة عقلاً ولكنه أقام الأدلة على وجوده وخلق العقول ومكنها من ذلك، وأرسل الرسل عليهم الصلاة والسلام هادين ومرشدين وجعل أدلتهم معجزاتهم، وصفاتهم الكريمة التى جبلوا عليها من الصدق والأمانة

---

(1) سورة إبراهيم الآية: ١٠

(2) سورة الأنعام الآية: ١٠٣

والصبر والعلم والكرم والنزاهة.. إلخ وهذه الأدلة التى أقامها الله عزّ وجل على وجوده وعلى صدق رسله عليهم الصلاة والسلام كلها واضحة وميسورة فالإيمان بالله تعالى ورسله وكتبه نظري لا ضروري. لكنه نظري سهل ميسور جداً.. حتى قال بعض العلماء: إن معرفة الله تعالى ضرورية بديهية لا تحتاج إلى نظر وفكر.

وقال جماعة: إن الطريق إليها الرياضة والعزلة ومدوامة الذكر.

وقال قائلون: إنما تحصل بطريق الإلهام والتجلي.

والحق أن معرفة الله تعالى بالنسبة لغير المصطفين الأخيار الذين اصطنعهم سبحانه لنفسه، واختارهم لحضرة قدسه، وخرق لهم العادة فكشف لهم عن كمال ذاته، وعرفهم به أولاً ثم عرفهم الأشياء بعده– لا طريق لها إلا النظر والاستدلال ولما كان هذا الطريق واضحاً سهلاً قريباً من الأذهان لا يحتاج إلى كثير تعب ومعاناة بل يسبق إلى العقول بأدنى نظر وأقل اعتبار فى ملكوت السموات والأرض وفى أحوال الإنسان نفسه أطلق بعض العلماء القول بأن معرفة الله ضرورية لا كسبية فلا خلاف فى الحقيقة وإنما أحوال الناس هي التي تختلف، وعقولهم المتفاوتة وقلوبهم منها الصافى الرقيق ومنها الكدر الغليظ، وحكم القبضتين السابق أزلاً حين قال الحق تعالى :"هؤلاء للجنة ولا أبالي بعمل أهل الجنة يعملون، وهؤلاء للنار ولا أبالي ويعمل أهل النار يعملون" وهو الذي فرق بين الناس وجعلهم مختلفين ولا يزالون مختلفين.

عز بساط الحضرة أن تطأه حوافر الجهال فقالوا: أين الله؟.. فلا دليل على وجود الله.. مع أن الدليل موجود والوصول إليه سهل ميسر.

وتجلى الحق سبحانه لأسرار من اصطفاهم من خلقه فقالوا: وجود الله لا

يحتاج إلى دليل، حتى قيل إن تلميذاً سأل شيخه: أين الله؟ فقال الشيخ: اسحقك الله! اتطلب مع العين أين؟

قتل الحلاج: لأنه كان يقول ما فى الوجود الا الله.

وها نحن أولاء عشنا حتى سمعنا من يقول: لا شئ فى الوجود يسمى الله. فقارن بين المقاتلين، وانظر التفاوت الكبير بين الحالتين.

تباركت يارب وتعاليت.. كم فاوت بين عبادك. يناجيك بعضهم فيقول: إلهي مت غبت حتى تحتاج دليل يدل عليك، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التى توصل إليك؟ وبعض عبادك قد وصلوا باختراعاتهم إلى قاع البحار، وكادوا يصلون إلى عنان السماء، يبحثون وينقبون، فما بالهم لا يجدوك ولا يعرفوك.

يفنى بعض عبادك فى مراقبتك عن حظوظ نفسه، ويتجافى عن مألوفاتها. فيقال له: رأينا جاريتك الزرقاء فى السوق فيقول: أو زرقاء هي؟

ويستغرق البعض فى شهواته وملذوذات نفسه، حتى لا يجد فراغاً يفكر فى عظمتك وجلال ملكوتك.

الكتب التى أنزلتها بحكمتك، والرسل الذين أرسلتهم لدعوة خلقك إليك قد بلغوا الرسالة، وأدوا الأمانة، وأسمعت كلماتهم من به صم والآيات التى بثثتها فى الآفاق وفى الأنفس يراها كل ذى عينين، وقد وهبت العقول وسهلت السبيل، ويسرت القرآن للذكر ولكن عبادك منهم المؤمن بك، ومنهم الكافر الجاحد.

كل ما اطلع عليه المؤمنون، ونظروا فيه من آياتك فكان سبب هدايتهم وإيمانهم، نظر فيه الطبيعيون المارقون فكان سبب كفرهم وضلاهم، فهل هذا إلا الدليل القاطع على إنك سبحانك الواحد القهار، تهدي من تشاء وتضل من

تشاء لا معقب لحكمك ولا راد لقضائك.

فى الدر المنثور للحافظ السيوطي أخرج الطبراني بسند مقارب – أي يقارب الصحيح – وأبو الشيخ فى العظمة عن مالك الأشعرى رضي الله تعالى عنه قال: قال النبي ﷺ "أن الله يقول: ثلاث خلال غيبتهن عن عبادي، ولو رآهن رجلاً ما عمل سوء أبدًا، أي فلا يكفر ولا يعصي – لو كشفت غطائي – هذه الخلة الأولى – فرآني حتى استيقن ويعلم كيف أعمل بخلقي إذا أمتهم وقبضت السموات بيدي، ثم قبضت الأرضين ثم قلت أنا الملك من الذي له الملك دوني، ثم أريهم الجنة – هذه الخلة الثانية – وما أعددت لهم فيها من كل خير فيستيقنوا بها، وأريهم النار – وهذه هى الخلة الثالثة– وما أعددت لهم فيها من كل شر فيستيقنوا بها ولكن عمداً غيبت عنهم ذلك لأعلم كيف يعملون وقد بينته لهم.

قلت هذا حديث قيم نفيس، فيه تقرير للواقع، وتأييد لما ذكرناه آنفاً من الله تعالى قد حجب الخلق عنه فى الدنيا لحكمه الابتلاء والاختبار وجعل الدليل عليه آثار صنعته، وآياته المنزلة على رسله عليهم الصلاة والسلام، وقد مكن العقول من معرفته والإيمان به، وأعطاها القدرة على النظر والاستدلال، وكذلك غيب الجنة وغيب النار للحكمة المذكورة وهي الابتلاء والامتحان، ليكون الإيمان بأمور مغيبة، ويظهر تباين رتب العباد.

فنحن المؤمنين بالله تعالى بدافع من فطرتنا، وبما أعطانا الله تعالى من العقول المميزة، وبإرشاد الرسل عليهم الصلاة والسلام، قد نظرنا فى أنفسنا، وفى أجناس الموجودات جواهرها وأعراضها المحسوسة والمعقولة، فوجدنا أثر الصنعة وإمارة الحدوث فيها فعرفنا أنها حادثه قطعاً، ومعلوم بضرورة العقل أن كل حادث لابد له من محدث، فأثبتنا بناء على ذلك أن لهذه الموجودات محدثاً

غيرها، بالضرورة أحدثها، ولا يكون أن يصح أن يكون مماثلاً لها وإلا لم يكن خالقها ومحدثها.. ولم ندع قط أننا رأينا ذاته تعالى.. فبأي وجه يدفع هذا الاستدلال الواضح القريب؟ وأي عقل سليم لا يسلمه ولا يرتضيه؟ ماذا يقول الشيوعيون والوجوديون فى هذا؟ قالوا: إننا لم نر الله، ولم تدركه حواسنا فلا نعترف بوجوده.

وبديهي أن هذا الكلام فيه تعطيل للعقل وإبطال لفائدته، وهو المنحة الوحيدة التى امتاز بها الإنسان عن الحيوان.

إن الله تعالى كما أعطانا الحواس لندرك بها المحسوسات، كذلك أعطانا العقول لندرك بها ما وراء المادة والحس.

العقل أكبر منحة وهبها الله تعالى لخلقه، ولذلك استحق أن يكون هو المرجع والدليل لأكبر مطلب، وأجل مقصود وهو العلم بالله تعالى خالق الأشياء ومسبب الأسباب

لماذا خلقت العقول يا هؤلاء. إذا لم يكن لها عمل غير عمل الحواس ومدراك غير مداركها؟ أتظنون أن العقول خلقت لتحصيل المآكل والمشارب وتدبير الحيل لاقتناص الشهوات الحسية فقط وهذا أخس فوائدها، وأقل الحكم المقصودة منها؟

الله عز وجل لم يجعل الحواس فى الدنيا دليلاً عليه تكريماً للعقول، وتقديراً للمواهب الانسانية فقد تفضل سبحانه فجعل الدلائل عليه قريبة سهله، ومعنى ذلك أنه جعلها متوسطة معتدلة بين الضروري الذي يبطل معه الاختيار والامتحان، والتعمية التي تصل إلى حد التعجيز والإعنات، والله بخلقه عليم وفي صنعه حكيم.

أم خلقوا من غير شيء

أخرج البخاري في صحيحه عن حبير بن مطعم ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ فى المغرب: [وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ][١] فلما بلغ هذه الآية: [أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ][٢] كاد قلبى أن يطير.

وإنما تأثر قلبه رضي الله تعالى عنه هذا التأثر البليغ حتى كاد قلبه أن يطير لمعرفته بما تضمنته هذه الآيه من بليغ الحجة، وواضح البرهان، الذي تخضع له القلوب، وتخر له العقول ساجدة.

والمعنى –كما يقول أبو سليمان الخطابي– "أم خلقوا من غير شيء"– أي أوجدوا بلا خالق، وذلك ما لا يجوز أن يكون لأن تعلق الخلق بالخالق، يعني احتياج المخلوق والموجود لخالقه وموجده، من ضرورة الأمر، فلابد له من خالق، فحيث أنكروا الإله الخالق، ولم يجز أن يوجدوا بلا خالق خلقهم، أفهم الخالقون لأنفسهم وذلك فى الفساد أكتر وفي الباطل أشد، لأن ما لا وجود له كيف يجوز أن يكون موصوفاً بالقدوة، وكيف يخلق؟ وكيف يتانى منه الفعل؟ وإذا بطل الوجهان معاً؟ وهما أن يوجدوا بلا خالق، أو يخلقوا أنفسهم، قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقاً، فليومنوا به إذن، ثم قال تعالى: [أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ]

وذلك ما لا يمكنهم أن يدعوه بوجه، فهم منقطعون، والحجة لازمة لهم، ثم قال "بل لا يوقنون" فذكر العلة التى عاقتهم عن الإيمان وهي عدم اليقين التي هي موهبة من الله عزوجل فلا ينال إلا بتوفيقه.

---

[١] سورة الطور الآية ١، ٢

[٢] سورة الطور الآيتان: ٣٥، ٣٦

وعن الإمام الشافعي ﷺ قال: استقبلني سبعة عشر زنديقاً في طريق غزة فقالوا ما الدليل على الصانع؟ فقلت لهم: إذا ذكرت دليلاً شافياً فهل تؤمنون؟ قالوا نعم، فقلت نرى ورق الفرصاد، – شجر التوت – طعمها ولونها وريحها سواء، فيأكلها دود القز فتخرج من جوفها الأبريسم، ويأكلها النحل فتخرج من جوفها العسل، وتأكلها الشاه فتخرج من جوفها البعر، فالطبع أن كان موجباً عندكم فيجب أن يوجب شيئاً واحداً لأن الحقيقة الواحدة لا توجب إلا شيئاً واحداً، ولا توجد متضادات متنافرات. ومن جوز هذا كان عن العقول خارجاً وفي التيه والجاً، فانظروا كيف تغيرت الحالات عليها فعرفنا أنه فعل صانع عالم قادر، يحول عليها الأحوال، ويغير التارات – جمع تارة – فبهتوا، ثم قالوا، لقد أتيت بالعجب العجاب، فآمنوا وحسن إيمانهم.

قلت :وأصل ما قاله الإمام قول الله عز وجل: [وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ][١] والمعنى أن قطع الأرض تكون متجاورة متلاصقة، ومع ذلك فهي مختلفة في طبعها وحقيقتها، فبعضها تكون رخوة وبعضها تكون صلبة، وبعضها تكون سبخة، وبعضها تكون طيبة، وبعضها تكون حجرية، وبعضها تكون رملية، فما هذا الاختلاف، مع أن الشمس والكواكب المشرقة على تلك القطع متساوية، لا اختلاف فيها، فدل هذا على أن اختلافها في طبائعها وصفاتها بتقدير العزيز العليم، وأيضاً أن القطعة الواحدة من الأرض، تسقى بماء واحد، وتطلع الشمس عليها بنسبة متساوية مع أن ثمارها تجنى مختلفة في طبعها ولونها وخاصيتها، حتى إنك لتأخذ عنقوداً من العنب، فتكون جميع حباته نضيجة إلا

---

[١] سورة الرعد الآية: ٤

حبة واحدة بقيت حامضة يابسة، فما سر هذا الاختلاف، أن هذا لهو الدليل القاطع على أنه فعل صانع مختار وعالم حكيم.

وحكي أن رجلاً أنكر الصانع عند جعفر الصادق ﷺ ففتح له باب الاستدلال – الاستدلال العقلي المحض– فلم يصغ إليه. فقال له: هل ركبت السفينة قط؟ قال نعم انكسرت بنا مرة فطلعت على لوح إلى الساحل، فانقلت مني اللوح. فقال له جعفر: لما ذهب عنك اللوح كنت ترجو السلامة ممن، حين ذهب اعتمادك على الأسباب؟ فسكت الرجل، فقال جعفر، الذي رجوت منه السلامة هو الذي خلقك، فأسلم الرجل.

وهذا إشارة إلى دليل الفطرة، وهو ما يجده الإنسان من الشعور الباطنى بأن هناك سلطة غيبية قاهرة مسيطرة على الكون يتوجه إليها الإنسان عندما يقع فى شدة، وتنقطع عنه الأسباب ويتعذر اعتماده عليها.

وهو موجود في كل نفس وإنما تغفل عنه النفوس فى حال انغماسها فى الشهوات، وتقلبها فى أعطاف النعم، وتأثرها بغواشى الوهم والحس، فإذا وقعت فى شدة، وذهبت الأسباب وتعذرت الحيل، أحست به، وشعرت بوجوده.

وإليه الإشارة بقوله تعالى: [وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ][١] وبقوله: [وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ][٢]

وقد استدل بعض العلماء على وجود الله تعالى ووحدانيته، بوجود الروح

---

[١] الإسراء الآية: ٦٧

[٢] سورة النحل الآية: ٥٣ و٥٤

فى البدن من عشرة أوجه:

الوجه الأول: أن الهيكل الإنسانى لما كان مفتقراً إلى مدبر ومحرك، وهذا الروح يديره ويحركه، علماً أن العالم لابد له من محرك ومدبر.

الوجه الثانى: لما كان مدبر الجسد واحداً، وهو الروح. علمنا أن مدبر هذا العالم واحد لا شريك له فى تدبيره وتقديره، لا جائز أن يكون له شريك فى ملكه. [لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا][1]، [قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آَلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا][2]

الوجه الثالث: لما كان هذا الجسم لا يتحرك إلا بإرادة الروح وتحريكها له علمنا أنه مريد لما هو كائن في كونه، لايتحرك بخير أو شر إلا بتقديره وإرادته وقضائه.

الوجه الرابع: لما كان لا يتحرك في الجسد شيء إلا بعلم الروح، وشعورها به، لا يخفي على الروح من حركات الجسد وسكناته شيء. علمنا أنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

الوجه الخامس: لما كان هذا الجسد لم يكن فيه شيء أقرب إلى الروح من شيء. علمنا أنه قريب إلى كل شيء، ليس شيئاً أقرب إليه من شيء، ولا شيء أبعد إليه من شيء. لا بمعنى قرب المسافة. جلّ ربنا وتنزه عن ذلك.

الوجه السادس: لما كان هذا الروح موجوداً قبل وجود الجسد، ويكون موجوداً بعد فقد الجسد. علمنا أنه سبحانه كان موجوداً قبل وجود خلقه،

---

[1] سورة الأنبياء الآية ٢٢

[2] سورة الإسراء الآيتان ٤٢ و٤٣

ويكون موجوداً بعد فقد خلقه. مازال ولايزال وتقدس عن الزوال.

الوجه السابع: لما كان الروح في الجسد لا يعرف له كيفية. علمنا أنه تعالى متقدس عن الكيفية.

الوجه الثامن: لما كان الروح في الجسد لا يعرف له أبنية. علمنا أنه جل وعلا مقدس عن الأبنية والكيفية. لا يوصف بأين، ولا كيف.

بل الروح موجودة في سائر الجسد ما خلا منه شيء في الجسد، كذلك الحق سبحانه وتعالى موجود في كل مكان، ما خلا منه مكان، وتنزه عن المكان والزمان.

الوجه التاسع: لما كان الروح في الجسد لا يحس ولا يجس ولا يمس.

علمنا أنه ينزه عن الحس والجس والمس.

الوجه العاشر: لما كان الروح في الجسد لا يدرك البصر، علمنا أنه لا يدرك بالأبصار، ولا يمثل بالصور والآثار، ولا يشبه بالشموس والأقمار [لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ[1]].. قيل وهذا معنى قولهم: من عرف نفسه فقد عرف ربه.

---

[1] سورة الشورى الآية: ١١

الدين القيم

الإسلام.. هو الدين القيم

الإسلام هو الدين القيم حقاً. دين الإنسانية، الدين الملائم للفطرة، الموافق للعقل المطابق للواقع، المساير لسنن الكون ونظام الحياة. الدين الحنيف الذي فلسف الإنسانية فلسفة كاملة شاملة، فلسفة حقيقية واقعية تنطبق على الإنسان جسماً وروحاً ظاهرً وباطناً انطباقاً تاماً لا زيادة فيه ولا نقص كثوب مفصّل على الإنسان تفصيلاً محكماً، فلا هو بالقصير الضيق، ولا هو بالواسع الفضفاض. لا يرفع الإنسان فوق طوره، ولا يهبط به دون مستواه.

دين وثيق العرَى، ثابت الأركان، واضح المعالم، بيِّن الحدود، لا إشكال فيه ولا غموض، ولا تعمية ولا إلغاز، دخل على الإنسان من باب نفسه، واحتج عليه بشواهد عقله وحسّه.. وقاده إلى تعاليمه بزمام طبعه، لا بتأثير ولا بتغرير، ولا بقوة ولا بطش.

دين قيم يقبله الأصفياء الأزكياء، بشهادة قلوبهم ونور بصائرهم لأنهم يجدونه ترجمة عما في صدورهم، وتفصيلاً لما في ضمائرهم [أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ[1]] ويتنبه إليه الغافلون متى رجعوا إلى عقولهم واحتكموا إلى الدليل والبرهان، ولا ينكره بعد البيان والتعريف إلا من سفه نفسه، وأهدر عقله [وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ[2]]. أي الخارجون عن الفطرة المنسلخون عن الآدمية، المجردون عن

---

(١) سورة المجادلة الآية ٢٢

(٢) سورة البقرة الآية ٩٩

العقول التي تفقه وتدرك.

ما خلا الإنسان إلى نفسه، ورجع إلى عقله، وفكر في الإسلام تفكيراً سليماً إلا ازداد إيماناً بصحته واقتناعاً بفائدته، ولا امتحنه بالعمل والتطبيق إلا بهرة كماله وجماله، واتفاقه مع الواقع، عكس المذاهب والنحل الأخرى، فما يمتحنها الإنسان بالعقل أو بالعمل والتطبيق إلا ويرى فيها الخلل والإضطراب، والتناقض ومجافاة الواقع: واقع الإنسان، وواقع الحياة الخارجية.

الإسلام هو الشريعة البيضاء، والمحجة الغرَّاء، والطريقة الراشدة، والصراط المستقيم. نوَّه الله تعالى بذكره في كتبه السابقة [وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ(١)] وبشر الأنبياء بنبّه قبل ظهوره صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، [الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ(٢)]، [وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ(٣)].

لولا ما غلب على بعض العقول من التعصب المذموم، والتقليد الأعمى لما أرادت به بديلاً ولا اختارت غيره ديناً.. حتى قال بعض أحبار اليهود وكان من أذكيائهم في مناظرة جرت بينه وبين أحد العلماء، وقد عطف على يهودي إلى جنبه: نحن قد جرى نشأتنا على اليهودية، وتالله ما أدرى كيف الخلاص من أمر هذا العربي. يعني النبي ﷺ.

الإسلام جاء بمعجزتين عظيمتين: ليس لهما مثيل فيما عرفت الدنيا من المعجزات: القرآن الكريم الذي أعجز البلغاء، ولم يستطع أحد منهم من وقت

(١) سورة الشعراء الآية: ١٩٦

(٢) سورة الأعراف الآية: ١٥٧

(٣) سورة الصف الآية: ٦

نزوله إلى يومنا هذا أن يأتي بما يحاكيه أو يدانيه. والشريعة الواضحة الجامعة المتضمنة من مصالح العباد ودرء المفاسد عنهم ما يعجز عنه الحكماء والعلماء، حتى قال بعض أهل الإنصاف من غير المسلمين، عندما وقف على محاسنها: لو كنت متديِّناً بدين من الأديان لما اخترت إلا شريعة الإسلام.

وقال بعض المستشرقين منهم: إن البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد إليها إذ أنه مع أمِّيَّته استطاع قبل بضعة عشر قرناً أن يأتي بتشريع سنكون نحن– الأوربيين– أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمته بعد ألفي سنة..

وفي هذا أقول من قصيدة "همزية".

يا أمة المختار أحيوا شرعه ... تجدوا حياة العز في إحيائه
خَلُّوا الحياة على أساس نظامه ... لا تقتدوا بالغرب في آرائه
فهو الذي جعل السعادة للورى ... حَصناً ولاذ بهم إلى أفيائه
الخير يُنشَر ظلّه في ظله ... والأمن يبقى سائداً ببقائه
لو حاول الدهر الناس وسيلة ... ودعا لها من شاء من حصفائه
وأراد أن يهدى الحياة لميته ... ويعيد بعث الروح في أعضائه
لم يلف قانوناً كشرع مُحَمَّد ... –كلا– ولا عدلاً كعدل قضائه
وحي من الرحمن كيف يناله ... عقل، وتذكر حكمة بإزائه
لا تنهل الألباب مثل سُلافه ... راحاً ولا ترضى بغير صفائه
ما فيه من حِكم وفيض معارف ... بحر، عقول الخلق بعض دلائه

الإسلام هو النعمة الكبرى والسعادة العظمى والسبب الذي مدَّه الله عز وجل إلينا لنتصل بحضرته ونصل إلى جنته، ونعيش في أمن وسلام.

أخرج الطبراني في الكبير عن أبي شريح رضي الله تعالى عنه قال: "خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله. قالوا: بلى. قال: إن هذا القرآن طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبداً".

والله تعالى يقول: [قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ. يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ[1]].

وروي عن الإمام علي رضي الله تعالى عنه في التنويه بشأن الإسلام أنه قال في خطبة له: "لأنسبن الإسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي: الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل.. إن المؤمن من يعرف إيمانه في عمله، وإن الكافر من يعرف كفره بإنكاره.. أيها الناس دينكم دينكم، فإن السيئة فيه خير من الحسنة في غيره، إن السيئة قد تغفر، وإن الحسنة في غيره لا تقبل.."

وأخرج البخاري في صحيحه "أن بعض أحبار اليهود قال لسيدنا عمر بن الخطاب آية في كتابكم لو أن علينا معشر اليهود نزلت لأتخذنا ذلك اليوم عيداً.

قال عمر: أي آية؟. قال: "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً[2]". قال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم، والمكان

---

[1] سورة المائدة الآيتان ١٥ و ١٦.

[2] سورة المائدة الآية: ٣

الذي نزلت فيه على النبي ﷺ. وهو بعرفة يوم جمعة".- يعني وتعظيمنا لكل من يوم الجمعة، ويوم عرفة معروف فإذا اجتمعنا زاد التعظيم، فقد اتخذنا ذلك اليوم عيداً وعظمنا مكانه.

الإسلام هو أكمل الشرائع الإلهية، وأفضلها قال الله تعالى [وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ[1]].- يعني القرآن الكريم فهو أحسن الكتب السماوية التي أنزلها الله تعالى.. جمع ما تفرق فيها من المحاسن والفضائل. كما أن نبينا ﷺ أفضل الأنبياء، لأنه جمع ما تفرّق فيهم من الأخلاق الكريمة والأحوال الشريفة، وكما أن هذه الأمة المحمّدية خير الأمم لقوله تعالى: [كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ[2]]. وقوله عز وجل: [وكذلك جعلنا كم أمة وسطاً[3]] أي خياراً عدولاً لكمال فطرتهم، وقوة استعدادهم.

لا نقول هذا كله بمجرد الدعوى، ولكن بالأدلة القاطعة، والبراهين الواضحة.. وإليكم البيان:

شريعة جامعة

كان العالم الإنساني والأمة العربية على الخصوص قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم في غاية من الانحطاط الخلقي، والانحلال الاجتماعي والفساد المتغلغل في العقائد والأعمال.. كانوا يعبدون الأحجار والأشجار، ويعكفون على أصنام لهم، لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر، وكانوا يسرقون وينهبون ويسفكون الدماء، ويقتلون أبناءهم خشية الفقر وبناتهم مخافة العار، وكانوا يأكلون ويشربون الخبائث من الميتة والدم ولحم الخنزير. وكان الظلم والاضطهاد

---

[1] سورة الزمر الأية: ٥٥

[2] سورة آل عمران الآية: ١١٠

[3] سورة البقرة الآية: ١٤٣

من الأقوياء للضعفاء قد بلغ مبلغه.. وكان أهل الكتاب قد انحرفوا عن سبيله وبدلوا من أحكامه، وكفروا بالله تعالى واختلقوا كذباً صاغوه بألسنتهم، وخلطوا بالحق الذي أنزله الله تعالى باطلاً لا يرضاه الله تعالى ولا يقبله العقل [وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ. اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ(١)]. [وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(٢)].

لذلك اقتضت حكمة الله تعالى البالغة ورحمته السابغة أن يبعث فيهم سيدنا ومولانا محمّداً ﷺ؛ ليصلح ما فسد من عقائدهم، ويقوم ما أعوج من أخلاقهم وأعمالهم، ويهديهم إلى الصراط المستقيم فيما يتعلق بأمر المعاش والمعاد..

فجاء صلوات الله وسلامه عليه بشريعة جامعة مستقلة بنفسها مستغنية عن غيرها من الكتب والقوانين: دينية كانت أو مدنيّة، لأنها تتضمن:

١. إثبات الصانع جل وعلا، وإثبات توحيده وصفاته الذاتية من العلم، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام.. ونفي النقائص عنه– عز وجل– وبيان كثير من شئونه في خلقه: ككونه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.. وأنه يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات.. وأنه لا يعذب الخلق على فعل شيء وترك شيءإلا بعد إقامة الحجة عليهم. وأنه كتب

---

(١) سورة التوبة الآيتان: ٣٠ و ٣١

(٢) سورة آل عمران الآية: ٧٨

على نفسه الرحمة وأن رحمته سبقت غضبه.. وأنه يذكر من ذكره.. وأنه لا يحب الفساد، ولا يرضى لعباده الكفر.. وأنه يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.. وأن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب.. وأنه تعالى يحب التوابين ويحب المتطهرين.. وأنه يعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن يحب.. وأنه لا يكلف نفساً إلا وسعها.. وأن من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها.. إلى غير ذلك مما لا تستقل العقول بإدراكه.

٢. بيان العبادات التي يرضاها الله تعالى؛ وتقرّب العباد إليه زُلفى وبيان كيفيِّتها، وأوقاتها وشروطها وآدابها، إذ لا مجال للعقل في ذلك.

والله تعالى لا يتقرب إليه بمناسبات العقول، وإنما يتقرب إليه بما شرعه وأوحى به إلى رسله عليهم الصلاة والسلام..

وفي الصحيح. "من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رَدّ" — أي مردود— وقال ابن أبي زيد في الرسالة: "ولا يكمل قول الإيمان إلا بالعمل، ولا قول ولا عمل إلا بالنية. ولا قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة".

٣. بيان المحرمات التي كلفنا الله تعالى بتركها والكف عنها وهي ثلاثة أقسام: قسم لإحياء النفوس وحفظ الأبدان: كالقتل، وأكل الخبائث من الميتة ولحم الخنزير، وشرب الخمور.. وقسم لائتلاف الناس وإصلاح ذات بينهم: كالغصب والظلم والسرقة.. وقسم لحفظ الأنساب وتعظيم المحارم: كالنهي عن الزنا، ونكاح ذوات الأرحام..

٤. إرشادنا إلى ما هو الحسن المحمود من الأحوال والأخلاق: كستر العورة عن الغير، وعدم اختلاط الجنسين، والنهي عن تبرج النساء وإبداء زينتهنَّ لغير

المحارم، وكالغيرة والمروءة وإكرام الضيف، ومساعدة المحتاج.. فإن ذلك وإن كانت الفطرة تشعر بحسنه وتدعو إليه لكن الشرع يزيده تأكيداً وحُسناً.

٥. إرشادنا إلى قواعد العدل وأسباب الأمن، ونظام المعاملات الدنيوية: كالبيع، والشراء، والإجارة، والشركة، والشهادة والقضاء، وأحكام النكاح، والطلاق والوصية، والميراث.. وغير ذلك مما فيه إقامة مصالح الدنيا وحفظ كيان المجتمع وانتظام أمر المعاش.. فإن العقول لا يمكنها الاهتداء إلى ذلك والاستقلال بمعرفته على الوجه المطلوب. كما أنها لا تجد في السياسات العقلية والقوانين الوضعية ما تجده في الأحكام الشرعية، والقوانين الإلهية من بواعث الرغبة والرهبة التي تحملها على الإستقامة في السر والعلانية.

٦. الإعلام باليوم الآخر، وما فيه من ثواب المطيعين وعقاب العاصين.

٧. إرشادنا إلى الكنوز الإلهية وخزائنه– عز وجل– في السموات والأرض، وكيفية فتحها والإستفادة منها. كإخباره– ﷺ– بأن صدقة السر تطفئ غضب الرب.. وأن صنائع المعروف تقي مصارع السُّوء.. وأن الدعاء في أعقاب الصلوات وفي جوف الليل مستجاب.. وأن الثلث الأخير من الليل ميقات لنزول الرحمات الإلهية والنفحات الربانية.

حتى عبر عنه في الحديث الشريف بقوله "ينزل ربنا إلى سماالدنيا. إذا بقي الثلث من الليل" والله تعالى يستحيل عليه النزول والانتقال والحركة. وإنما هذا نزول فيض ورحمة في ذلك الوقت.

ومن ذلك وضع صيغ الدعوات التي تكون سبباً في جلب المنافع الدنيوية والأخروية ودفع المضار كذلك.. ومن هذا القبيل جعل الصلوات الخمس في أوقاتها المعلومة: الصبح عند طلوع الفجر، والظهر بعد الزوال.. إلخ.. ومن

ذلك الإستخارة التي كان يعلمها رسول الله ﷺ لأصحابه كما يعلمهم السورة من القرآن.

الدين الحنيف

الإسلام دخل على الإنسان من كل باب، وجذبه إلى تعاليمه بكل وسيلة مقنعة: فتارة يذكر له ما يترتب على الإيمان والعمل بهذا الدين الحنيف من العز والشرف [لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ(١)].

وتارة يرشدهم إلى ما فيه من الفوائد والثمرات. [وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ(٢)].. [وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا(٣)].

وورد في أحاديث كثيرة "أن من وصل رحمه بُسط له في عمره وبُورك له في رزقه". وقال ﷺ حاكياً عن الملائكة الذين ضربوا له المثل: إن مثله كمثل رجل بني داراً وجعل فيها مأدبة، وبعث داعياً. فمن أجاب الداعي دخل الدار– الجنة– وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة". وقال ﷺ "إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل أتى قوماً فقال يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان، فالنجاء النجاء. فأطاعه طائفة من قومه، فأدلجوا فانطلقوا على عملهم فنجوا، وكذبته طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش فأهلكهم".

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ١٠.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٩٦.

(٣) سورة النور: الآية ٥٥.

وقال عز وجل: [وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ[1]] فبين أن القصاص شرع لحفظ حياة النفوس.. وقال تعالى: [وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ]. [وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا[2]] إلى غير ذلك.. وتارة يبين له أن هذا الدين هو شرع المصطفين لأخيار وسنن السابقين من أنبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام، وهذا من بواعث قبوله والرغبة فيه قال تعالى: [يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ[3]] وقال تعالى: [مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ[4]] وقال تعالى: [شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ[5]].

فما جاء الإسلام، ولا نزل القرآن إلا مصدقاً لما بين يديه من كتب الله تعالى ومهيمناً عليها. يقرر ما قررته من الحق سواء تعلّق بحقوق الله تعالى، كاعتقاد توحيده تعالى عبادة واستعانة، وتنزيهه عما لا يليق بجنابه من الولد والوالد، وتحريم الإلحاد في أسمائه، والتهجم على غيبه، وبيان أنه قَّدر الحوادث قبل أن يخلقها، وأنه ينزل الكتاب على من شاء من خلقه، ويصطفى لرسالته من شاء من عباده وأن على العباد أن يعظموه تعظيماً لا يشوبه تفريط، وأن يسلموا وجوههم وقلوبهم إليه.. إلخ.. أو بمصالح العباد كإباحة النكاح وتحريم السِّفاح وإقامة العدل بين الناس، وتحريم المظالم، والضرب على أيدي العابثين، وإقامة الحدود على أهل المعاصي والفجور.

---

[1] سورة البقرة: الآية، ١٧٩

[2] سورة الطلاق: الآيتان ٣ و ٤

[3] سورة النساء: الآية ٢٦

[4] سورة الحج: الآية ٧٨

[5] سورة الشورى: الآية ١٣

والجهاد في سبيل الحق لحفظ الملة والدولة. فهذا وأمثاله ما زاده الإسلام إلا تقريراً وتوكيداً. وكذلك محاسن الأخلاق التي كانت موجودة قبل البعثة: كصلة الرحم، ونصرة المظلوم، ومساعدة الضعيف، والإعانة على نوائب الحق قد أقرها الإسلام وأكدها وتَمَّمَ الناقِص منها كما قال ﷺ "بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".

وإنما أبطل الإسلام البدع التي أوحت بها الشياطين وأملتها أهواء المضلين: كعبادة الأصنام، وتشبيه الله تعالى بخلقه، واعتقاد أنه يحل أو يتحد ببعض مخلوقاته.. وأكل الربا، وفرض الإتاوات على الناس ظلماً وعدواناً، والسلب والنهب.. والتشدد والتعمق في العبادات.. كما نسخ بعض الأحكام الفرعية لحكمة اقتضت ذلك، ولمصلحة العباد أنفسهم.

وتارة يذكر الإنسان بحقيقة نفسه ومقدار طاقتها وواقع أمرها وأنها معدن الحكمة والعلم كما سبق في قوله تعالى: [وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آَدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى[(١)]]، وقوله عز وجل: [وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ[(٢)]]، وقوله: [فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا[(٣)]]. وقول النبي ﷺ: "كل مولود يولد على الفطرة".

فالإنسان يقدر على اكتساب المعرفة ويقدر على الإيمان بالغيب متى توفرت له أسباب المعرفة. ووضحت عنده شواهد الإيمان.

وهذا الدين الإسلامي الحنيف الذي دُعِيَ إليه. دين واضح جلي. ينساب إلى النفوس انسياباً، وينساق إليه انسياقاً، لا يحتاج إلى مشقة وعناء.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٧٢

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٦١

(٣) سورة الروم: الآية ٣٠

ولا يكلف الداعي إليه كبير جهد. وكيف يتكلف الداعي إلى الإسلام جهداً أو يتكبد مشقة؛ وهو إنما يتقاضى من الناس ميثاق فطرتهم؟ [وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ[1]].

فما يجافي الإسلام ولا يخالف عن أمره إلا فاسق غلبت عليه بهيميته، فهو يخالف أحكامه شاهداً على نفسه بالفسق، معترفاً بينه وبين ضميره بالتقصير والتفريط، ولا ينكره ولا يعاديه إلا ناقص العقل أبتر الفهم، مسخوط بين أبناء جنسه، موصوف بالشذوذ عنهم.

قال الإمام الفخر في تفسير سورة "ص" عند قوله تعالى: [قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ]. ما نصه: المفسرون ذكروا فيه وجوهاً، والذي يغلب على الظن أن المراد أن هذا الذي أدعوكم إليه دين ليس يحتاج في معرفة صحته إلى التكلفات الكثيرة، بل هو دين يشهد صريح العقل بصحته: فإني أدعوكم إلى الإقرار بوجود الله تعالى أولاً. ثم أدعوكم ثانياً إلى تنزيهه وتقديسه عن كل مالا يليق به كما قال تعالى: [لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ[2]]. ثم أدعوكم ثالثاً إلى الإقرار بكونه موصوفاً بكمال العلم والقدرة والحكمة والرحمة. ثم أدعوكم رابعاً إلى الإقرار بكونه منزهاً عن الشركاء والأنداد. ثم أدعوكم خامساً إلى الامتناع عن عبادة هذه الأوثان التي هي جمادات خسيسة ولا منفعة في عبادتها، ولا مضرة في الأعراض عنها. ثم أدعوكم سادساً إلى تعظيم الأرواح الطاهرة المقدسة، وهم الملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ثم أدعوكم سابعاً إلى الإقرار بالبعث والقيامة ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى. ثم أدعوكم ثامناً إلى الإعراض عن الدنيا والإقبال على

---

[1] سورة الحديد الآية ٨

[2] سورة الشورى الآية ١١

الآخرة.. فهذه الأصول الثمانية المعتبرة في دين الله تعالى ودين سيدنا مُحَّد صلى الله عليه وسلم. وبدائه العقول وأوائل الأفكار شاهدة بصحة هذه الأصول الثمانية، فثبت أني لست من المتكلفين في الشريعة التي أدعو الخلق إليها، بل كل عقل سليم وطبع مستقيم فإنه يشهد بصحتها وجلالها وبعدها عن الباطل والفساد. وهو المراد من قوله تعالى: [إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ[1]].

دين الفطرة

الإسلام دين الفطرة: عقائده وأخلاقه محببة للقلوب موافقة للطباع، وفرائضه قليلة جداً سهلة الأداء قال ﷺ: "بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله، وأن مُحَّداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا".

شرع الله تعالى فيه كثيراً من الرخص لأهل الأعذار كالتيمم بالصعيد الطاهر عند فقد الماء، أو عدم القدرة على إستعماله. والصلاة في أي موضع طاهر لا في خصوص المساجد- وإن كان أداؤها في المسجد أتم وأفضل- وإباحة الفطر، وقصر الصلاة في السفر بشرطه، والمسح على الخفين بدلاً من غسل الرجلين.. إلى غير ذلك. رفعت فيه أثقال التكاليف الشاقة التي كانت على الأمم السابقة: كتحتم القصاص حتى في الخطأ، وقتل النفس في التوبة، وقطع الأعضاء الخاطئة، وقطع موضع النجاسة من الثوب، والمؤاخذة بالخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه.

وقيل كان لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام وشريعته من الحلال الصرف ضد ما كان لسيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام من كل وجه.

[1] سورة التكوير: الآية ٢٧

وشريعتنا اعتدل فيها الأمران فسلمت من شدة هذه ولين تلك. واعتدلت في جميع جزئياتها.

دين لا يتحدى الطبيعة البشرية وإنما يعمل على تهذيب غرائزها وتقويمها، لا يأمر الناس بترك الدنيا وإنما يأمرهم بتكييف حياتهم فيها تكييفاً دينياً صالحاً، بأن يريدوا وجه الله تعالى ومصلحة عباده في جميع حركاتهم وسكناتهم. لا يقمع شهوات النفس بالمرة.. وإنما يقمع من الشهوات ما يخرج عن حد الحكمة والعقل، لا يأمر الناس بتغيير طباعهم وجعلها كطباع الملائكة لا تخطر فيها الشهوات ولا تعرض لها وساوس الشياطين.

قال المحاسبي: إن العباد أمروا وندبوا إلى الطاعات.. وأن يتقوا الرياء أن يعتقدوه، ولم يؤمروا أن يتركوا الطاعة من أجل دواعي الرياء. ولو فعل ذلك عبد لأوشك إذا علم الشيطان بذلك منه أن يعترض له عند كل طاعة.

ولم يؤمر الناس أن يخرجوا وساوس إبليس أن تعترض في صدورهم بعد أن جعل الله عز وجل له السلطان لذلك، ولا أن يغيِّروا خلقهم وطباعهم حتى تصير لا تنازع إلى شيء من زينة الدنيا رياء ولا غيره، حتى تكون الحمد فيها مكروه والذم فيها محبوب، وإنما أمروا أن يستوى ذلك- يعني حمد الناس وذمهم- في دينونتهم من عقولهم بما استودعها الله عز وجل من العلم، فأما في الخلقة فإن ذلك لم يكلفوه، ولا يقدرون عليه. فإنما أمر العباد بمجاهدة أهوائهم ولم يؤمروا أن لا يكون في النفس غريزة تدعو إلى شهوة، ولا أن يخرجوا وساوس الشيطان أن تعترض في صدورهم بل جُعلت لهم عقول، ومُنَّ عليهم بالمعرفة والعلم قائمين في عقولهم، وابتلوا في غرائزهم، وجعل الشيطان مُسولاً للغرائز بالتذكير لها بما تحب، وأمروا أن يجاهدوا بعقولهم بما استودعهم الله عز وجل من المعرفة والعلم ما هاج من دواعي غرائزهم، ونزع الشيطان وتزيينه للنفس، فليس

على العباد غير ذلك، ولا يقدرون إلا عليه. إلا أن بعضهم في ذلك أقوى من بعض.. فعلى العبد المجاهدة والنهي لنفسه عن هواها، ولم يكلف تغيير طبعه حتى ينقلب كطبع الملائكة عليهم الصلاة والسلام" أ هـ ملخصاً.

وقال العلامة ابن القيم في كتاب "التبيان في أقسام القرآن": لما سلطت على الإنسان الشهوة والغضب أعين بجند من الملائكة وجعل له محل من الحلال ينفذ فيه شهواته، وجعل بإزائه أعداء له ينفذ فيهم غضبه، فما ابتلي بصفة من الصفات إلا وجعل الله تعالى لها مصرفاً ومحلاً ينفذها فيه..

فجعل لقوة الحسد فيه مصرفاً وهو المنافسة في فعل الخير والغبطة عليه والمسابقة إليه.. ولقوة الكبر مصرفاً وهو التكبر على أعداء الله تعالى وإهانتهم وقد قال النبي ﷺ لمن رآه يختال بين الصفين في الحرب: "إنها لمشية يبغضها الله إلا في هذا الموطن" وقد أمر الله سبحانه بالغلظة على أعدائه، وجعل لقوة الحرص مصرفاً وهو الحرص على ما ينفع، كما قال النبي ﷺ: "أحرص على ما ينفعك" ولقوة الشهوة مصرفاً وهو التزوج بأربع والتسرِّي بما يشاء.. ولقوة حب المال مصرفاً وهو انفاقه في مرضاته تعالى، والتزود منه لمعاده، ومحبة المال على هذا الوجه لا تذم.. ولمحبة الجاه مصرفاً وهو استعماله في تنفيذ أوامر الله تعالى وإقامة دينه، ونصر المظلوم، وإغاثة الملهوف، وإعانة الضعيف، وقمع أعداء الله تعالى، فمحبة الرياسة والجاه على هذا الوجه عبادة، وجعل لقوة اللهو واللعب مصرفاً وهو لهوه مع امرأته وبقوسه وسهمه أو تأديبه فرسَه، وكل ما أعان على الحق.. وجعل لقوة التحيُّل فيه والمكر مصرفاً وهو التحيل على عدوه وعدو الله تعالى بأنواع التحيل حتى يراغمه ويرده خاسئاً، ويستعمل معه من أنواع المكر ما يستعمله عدوه معه. وهكذا جميع القوى التي ركبت في الإنسان جعل الله تعالى لها مصرفاً.. وقد ركبها فيه سبحانه لمصالح اقتضتها حكمته فلا يطلب تعطيلها..

وإنما تصرف في مجاريها من محل إلى محل، ومن موضع إلى موضع.. ومن تأمل هذا الموضع وتفقه فيه علم شدة الحاجة إليه وعظم الانتفاع به". أهـ

فليس المطلوب إذاً قطع الشهوة والغضب من النفس ولا محو آثارهما بالكلية، بل هذا ليس في الإمكان ولا في متناول القدرة الإنسانية، وإنما المطلوب المحتاج إليه وهو أصل فلاح الإنسان وينبوع سعادته أن يكون أمرهما متوسطاً معتدلاً. فلا تزيد الشهوة حتى تصل إلى حد الوقاحة والمجانة ويكون الجشع والحرص والفسق والفجور.. ولا تنقص إلى حد الجمود فيختل الأمر وينقطع شريان الحياة. بل تتوسط حتى تكون القناعة والعفة والجود والمواساة. وكذلك الغضب لا ينبغي أن يزيد فيحمل الإنسان على التهور وأذى الخلق والتعدي عليهم، ولا ينقص حتى يحصل الخوف والجبن، وتذهب الغيرة والحمية فيفسد الدين والدنيا معاً، بل يتوسط حتى يكون الصبر والشجاعة وما إلى ذلك من صفات الشرف والكمال..

وقد ضرب الإمام الفخر في تفسيره للدنيا وما فيها من الشهوات والعوارض الشاغلة عن الحق تعالى، مثلاً بالجو الفاسد الوبئ، الذي يخشى الإنسان أن يفسد مزاجه، ومع ذلك فهو لا يستغنى فيه عن استنشاق الهواء فلا سبيل له حتى يحيا الحياة الطيبة إلا أن يصلح ذلك الهواء الوبئ بالروائح الطيبة والأشياء الزكية والرشِّ بالخل والماورد إلى غير ذلك من المصلحات. فكذلك الدنيا لا يستغنى الإنسان عن أمورها، وهي المعينة للشيطان عليه، القاطعة عن الله تعالى. فطريق الخلاص له، تقصير الأمل والزهد في الدنيا– عدم شغل القلب بها– وتحريف هوى النفس أي إصلاحه بالذكر الطيب والزهد كما يصلح الهواء الفاسد بالروائح الطيبة والأشياء الزكية، فإذا حرف هوى النفس صح مزاج عقله واستقام له أمره، فلا يميل إلا إلى الحق ولا يبقى عليه في

التكليف كلفة ويصير له بالأمور الإلهية- وهي الطاعات- ألفة.. وهنالك يعترف الشيطان بأنه ليس له عليه سلطان..

وتحريف هوى النفس هذا الذي ذكره الفخر عبارة لطيفة ومغزاها كبير؛ فإن النفس لا يمكن في بداية الأمر صرفها عن شهواتها ومألوفاتها، فلابد مبدئياً من موافقتها في بعض أغراضها حتى تسلس وتلين ويستقيم حالها.

قال بعضهم: إن لسان حال النفس يقول لصاحبها: كن معي في بعض أغراضي وإلا صرعتك.. فالعاقل يسلك بها من طرق الحق ووجوه الخير- على ما ذكره ابن القيم في عبارته السابقة- ما يوافق مزاجها ويأتلف مع طبعها، ويتغاضى في البداية عما يكون لها من الحظ والشهوة في ذلك، وذكر الله تعالى هو الذي يحرّف هوى النفوس ويصلح من شأنها، وهو الدواء الناجع، والإكسير الذي يغير الطباع، ولذلك جعله الصوفية أهم أركان الطريق وسموه "منشور الولاية" وقالوا: إن الله تعالى إذا أراد أن يوالي عبده فتح عليه أبواب الذكر.

بهذا جاء الدين الإسلامي الحنيف فنظم حياة الإنسان، وقوَّم غرائزه، وهذبها وما دخلت المشقة على الناس إلا من مجاوزة الحد والجهل بحقيقة المطلوب.

قال ﷺ "بعثت بالملة السمحة الحنيفيَّة البيضاء".

قال العلامة الذهلوي "يريد بالسمحة: ما ليس فيها مشاقّ الطاعات التي ابتدعها الرهبان، بل فيها لكل عذر رخصة، يتأتى العمل بها للقويّ والضعيف، والمكتسب والفارغ.. وبالحنيفية: ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام المتضمنة لإقامة شعائر الله ومحو الشرك وإبطال التحريف، والرسوم الفاسدة؛ وبالبيضاء: التي ظهر أمرها، وصارت وسائلها ومقاصدها واضحة لا يرتاب فيها من تأمل، وكان سليم العقل غير مكابر.

دين اليسر

الإسلام دين اليُسر.. أي طريق معرفته والوقوف على حقائقه سهل ميسّر.. أما بالنسبة لمن عاصر النبي ﷺ فقد أخذه بمشاهدة العيان، وصار عنده أمراً واقعياً محسوساً، حيث شاهد أحوال النبي ﷺ، وسمع أقواله، ورأى معجزاته رأى العين. ومما لا خلاف فيه لصديق ولا لعدوّ أنه ﷺ كان أعقل الناس، وأطيب الناس، وأطهرهم سيرة، وأكرمهم خُلقاً، وأعظمهم صدقاً وأمانة، وكان غاية في قوة الحواس، وصحة البدن، واعتدال المزاج، وقد أخبر أصحابه عن الوحي، وبين لهم أنه أمر حقيقي واقعي، وأنه تارة يتمثل له الملك رجلاً فيكلمه، ويعي ما يقول، وتارة يأتيه كصلصلة الجرس فيفصم عنه وقد وعى ما قال.. وكانوا يشاهدونه ﷺ عند نزول الوحي ويرون آثاره عليه. وقد جاء عنه ﷺ: أن الوحي كان يخالط قلبه. ومعناه: أنه يتصل به، ويصير عنده أمراً ضرورياً محققاً، وفي رواية قال ﷺ: "شقَّ الملكان صدري فما وَلّيا حتى كأني أعاين الأمر معاينة".

ولهذا يقول الغزالي: ولا تظن أن معرفة النبي عليه الصلاة والسلام لأمر الآخرة ولأمور الدين تقليد لجبريل عليه الصلاة والسلام بالسماع منه، كما أن معرفتك تقليد للنبي ﷺ حتى تكون معرفتك مثل معرفته، وإنما يختلف المقلَّد فقط، وهيهات.. فإن التقليد ليس بمعرفة. بلى هو اعتقاد صحيح.. والأنبياء عليهم الصلاة والسلام عارفون. ومعنى معرفتهم: أنه كشف لهم حقيقة الأشياء كما هي فشاهدوها بالبصيرة الباطنة. كما تشاهد أنت المحسوسات بالبصر الظاهر فيخبرون عن مشاهدة لا عن سماع وتقليد..

ومتى كان ﷺ من معاينة الأمر ومشاهدة الحقائق بهذه المثابة، وكان من كمال العقل وقوة الحواس والإدراك وطهارة السيرة وصفاء السريرة. وكان أرحم الناس بالناس وأبرّهم بهم وأحرصهم على هدايتهم.

ولا غرض له سوى ذلك. لم يطلب من أحد أجراً، ولا جر لنفسه نفعاً مادياً. بل تحمل أذى الأعداء وجفاء الجهال، وكلف نفسه وأهله من الزهد في الدنيا والتخلي عن شهواتها ما لا يطيقه بشر سواه.. متى كان بهذه المثابة فلا شك أن القلوب تكون مضطرة لتصديقه والإذعان له.. وقد أكثر القرآن الكريم من التذكير بأحوال النبي ﷺ وصفاته العالية ومكانته بين الناس، وثقتهم فيه طوال حياته حيث يقول: [لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ[1]]، ويقول: [أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ. أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ[2]]. ويقول: [وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى[3]] ويقول: [أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى. وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى[4]].

فكل هذه الأشياء. سيرته ﷺ الطيبة، وأخلاقه الكريمة، ومعجزاته الباهرة وعلى رأسها القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذه الشريعة الواضحة الكفيلة بمصالح العباد، حقائق ثابتة وأمور واقعية لا يمكن إنكارها. وما أحسن صنيع البخاري في صحيحه حيث قدم باب بدء الوحي وجعله فاتحة كتابه، وذكر فيه الأحاديث الواردة في الوحي وهي في غاية الصحة، وتصف الأمر الواقع المحسوس وضمَّ لها حديث هرقل مع أبي سفيان.. وفيه وجوه كثيرة تدل على صحة نبوته ﷺ وتنفي عنه جميع الشبه. ثم أعقبه بباب الإيمان للإشارة إلى أن من كان كذلك فلا محيص من تصديقه والإيمان به.

---

[1] سورة التوبة الآية ١٢٨

[2] سورة المؤمنون الآيات ٦٧– ٧٠

[3] سورة النجم

[4] سورة النجم الآيات: ١، ٢، ١٢، ١٣، ١٤

أي أن الفطرة قاضية بذلك. فالمشاهد له ﷺ يجد الآيات الدالة على صدقه أموراً محسوسة، لا يمكن المكابرة فيها.

وأما بالنسبة لمن تأخر زمانه فإنه وإن فاتته مشافهة النبي صلى الله عليه وسلم ومشاهدة آياته. فليس في الدنيا– كما قال ابن تيمية– علم مطلوب بالأخبار المتواترة إلا والعلم بآيات نبينا ﷺ وشرائع دينه أظهر من ذلك. وما من حال أحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والملوك والعلماء والمشايخ المتقدمين وأحواله وأقواله وأفعاله وسيرته إلا والعلم بأحوال سيدنا مُحَمَّد ﷺ أظهر من العلم بذلك وأبين، ونقله أكمل وأتم، وما من علم يعلم بالتواتر مما هو موجود كالعلم بالبلاد البعيدة.

كعلم أهل الشام بالعراق وخراسان والهند والصين والأندلس، وعلم أهل المغرب بالشام والعراق. وأمثال ذلك من علم أهل البلاد بعضهم بحال بعض إلا وعلم الإنسان بحال المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وما هم عليه من الدين، وما ينقلونه عن نبيهم ﷺ من آياته وشرائعه أظهر من علمه بذلك كله.

فتواتر أحواله، وسيرته، وشريعته، وكتابه الذي أنزل عليه ﷺ يجعل المتأخر بمنزلة المعاصر له، المشاهد لأحواله ومعجزاته.. يضاف إلى هذا ما تجدد بعد عهده ﷺ من الدلائل والبراهين، الدالة على صدقه وكمال دينه، وكونه مشتملاً على الصواب والصلاح، ومطابقة الحكمة، وموافقة المنفعة في الدنيا والآخرة تحقيقاً لقوله عز وجل: [سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ[1]].

فلم يبق لجاهل عذر، ولا لمرتاب شبهة.

ولذلك يقول الغزالي بعد ما ذكر جملة من معجزاته وأحواله العجيبة:

---

[1] سورة فصلت الآية: ٥٣

"فأعظم بغباوة من ينظر في أحواله. ثم في أقواله. ثم في أفعاله. ثم في أخلاقه ثم في معجزاته. ثم في استمرار شرعه إلى الآن. ثم في انتشاره في أقطار العالم. ثم في إذعان ملوك الأرض له في عصره وبعد عصره مع ضعفه ويتمه. ثم يتمارى بعد ذلك في صدقه. وما أعظم توفيق من آمن به وصدقه واتبعه في كل ما ورد وصدر فنسأل الله تعالى أن يوفقنا للاقتداء به في الأخلاق والأفعال والأحوال والأقوال بمنه وسعة جوده".

وأما يسر هذا الدين من جهة العمل به فسبيل ذلك أن يلاحظ الإنسان أن أمور هذا الدين الإسلامي كلها أمور حقيقية واقعية.. فالبعث حق واقع والجنة حق.. والنار حق.. وثواب الله تعالى على الحسنات.. وعقابه على السيئات حقيقة واقعة،. وكل ما سماه الله تعالى في كتابه أو في سُنة نبيه ﷺ فهو كما سَّماه.. وكل ما أخبر به فإنه محقق الوقوع.. وعند ذلك يجعل الإنسان لقاء الله تعالى ومصيره إلى الآخرة أمراً حاضراً في قلبه مقرراً في نفسه، وفي هذه الحالة يشعر بأن العبادات قد صارت أموراً طبيعية، ولوازم ضرورية.. كضرورة الأكل والشرب وغيرهما من لوازم البشرية في هذه الحياة الدنيا.

فالبلية كل البلية في الغفلة عن الله تعالى وتعطل القلب عن ذكر الآخرة وانحصار الهم في الدنيا وشهواتها.

والخلاصة أن الله تعالى قد يسَّر الوصول إلى معرفة هذا الدين وتحصيل اليقين بصحته وصوابه وكثرة منافعه، بما جبل عليه نبيه ﷺ من التحلي بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، والتخلي عن جميع النقائص والعيوب، وبما أظهره في عالم الحس على يديه ﷺ من خوارق العادات، وأنواع الكرامات، وبما أودعه في قلوب الخلق من التعلق بأحواله ونقل كل ما ينسب إليه من قول وفعل منذ وجوده ﷺ حتى الآن. حتى بقيت شريعته ومعجزاته وكتابه المنزل عليه محفوظة

متواترة تواتراً لم يسبق له مثيل، ولا عرف له نظير في هذه الحياة الدنيا. فما يتفكر الإنسان في هذا الأمر أدنى تفكر ولا يلتفت إليه أقل التفات إلا باشر اليقينُ بصحةِ هذا الدين وكماله قلبه وامتزج بدمه ولحمه، ومتى وصل اليقين إلى هذا الحد قهر النفوس وسخر الجوارح، وتيسر العمل بأحكام الدين، والقيام بأوامره ونواهيه ولو كانت صعبة.. فكيف وهي خفيفة خالية عن المشقة والحرج.

دين الإنسانية

الإسلام دين الإنسانية- أي الدين الذي كمَّل الإنسان وزاده بسطة في العلم وقوة على العمل.. وبيان ذلك:

١. أن العقول وإن كانت كاملة مبصرة فليست العلوم عندها على مرتبة واحدة. بل بعضها تكون حاضرة بالفعل وهي العلوم الضرورية وبعضها يحتاج إلى نظر واستدلال.

وها هنا تلعب الهواجس النفسية والخواطر الشيطانية فتعوق الفكر عن النهوض فيحتاج الإنسان إلى الإرشاد والتنبيه.. وإنما تنبِّهه الكلمات الحكيمة والتوجيهات الصادقة حتى يصير العقل مبصراً بالفعل وتتفتح له أبواب المعارف والعلوم.. وأعظم الحكمة كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ فهو الذي يقرر الدلائل وينقحها ويكشف مواضع الشبه ويبطلها؛ فتكون منزلته من عين العقل منزلة نور الشمس من العين الظاهرة فيتم الأبصار، ولهذا سمي القرآن والسُّنة النبوية نوراً. كما يسمى ضياء الشمس نوراً.

٢. أنه زاد الإنسان طريقاً من طرق العلم وهو طريق الوحي المعصوم عن الخطأ والوهم، فغاية ما يظفر به الماديون المدركات الحسية وبعض العلوم العقلية الخاصة بشئون الدنيا.. أما المسلم المصدِّق بالوحي- وهو حقيقة واقعة- فإنه

يستفيد منه علوماً شتى: كالعلم بالملائكة عليهم الصلاة والسلام، وسائر الموجودات الغيبية.. والعلم بشئون الله تعالى في خلقه- وقد ذكرنا طرفاً من ذلك فيما سبق.

قال النيسابوري: (نزول القرآن الكريم نعمة على النبي ﷺ ونعمة علينا.. أما أنه نعمة عليه ﷺ فلأنه أطلع بواسطته على أسرار التوحيد.. ونعوت الجلال والإكرام.. وأحوال الملائكة عليهم الصلاة والسلام، وسائر النفوس القدسية.. وعلى كيفية القضاء والقدر وتعلُّق أحوال العالم السفلي بالعالم العلوي، والشهادة بالغيب، وارتباط أحدهما بالآخر.

وأما أنه نعمة علينا فلأنا نستفيد منه أيضاً مثل ذلك، ونعرف منه الأحكام الشرعية المفضية إلى إصلاح المعاش والمعاد..)

٣. الإنسان وإن كان له إرادة وقوة عملية إلا أن هذه الإرادة كثيراً ما يعرض لها الكسل والتواني ويعتريها الملل والفتور.. فإذا أوردت عليه الترغيبات والترهيبات من جهة الشارع.. وتبيَّن له خصائص البرِّ ومنافعه، ومضار الإثم ومفاسده تقوى إرادته ويتجدد نشاطه ويعرف قيمة نفسه.

وما اختص به من القدرة على كبج جماح شهوته ومخالفة هواه..

وتأمل.. مثل قوله ﷺ: "ليس الشديد بالصُّرعة وإنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب". وقوله عليه الصلاة والسلام: "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، إحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز".. إلخ.. تأمل هذا وأمثاله وتفكر في هذا الأسلوب النبوي القوي تشعر بما فيه من الإلهاب والتهييج وبعث النفوس على الجد والعمل.

وقد فطن إلى هذا المعنى بعض الأوربيين حيث قال: كان مُحَمَّد (صلى الله

عليه وسلم) واقفاً على أسرار بلاغة لغته. وبهذه اللغة كان يخطب محمد (صلى الله عليه وسلم) قومه، فكان يعطي حكمه جميع صنوف التأثير السحري، ويعطي تعاليمه الروعة التي تناسبها، ويعطي الأمثال المتداولة بين أهل زمانه مسحة من الجمال، جعلتها ذات قيمة غير قيمتها الأولى.

وقال بعضهم: امتاز محمد (ﷺ) بوضوح كلامه، ويسر دينه، وأنه أتم من الأعمال ما يدهش الألباب، فلم يشهد التاريخ مصلحاً، أيقظ القلوب، وأحيا الأخلاق، ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير، كما فعل محمد (ﷺ)..

منبع السعادة

ومما يدل على أن الإسلام هو دين الحق الذي ارتضاه الله تعالى لعباده، وشرعه لمصالحهم، وجعله موافقاً لفطرتهم، محققاً لسعادتهم:

١. ما ينشأ من استعمال عباداته، والمحافظة على سننه ورواتبه وأذكاره من خمود الأمراض الباطنية، من كبر. وحسد. وعجب. ورياء.. إلخ

٢. ما يكرم الله تعالى العاملين به، المتمسكين بأوامره ونواهيه من أنواع الكرامات الحسية والمعنوية، وما يلقيه عز وجل في قلوب الخلق من محبتهم وتعظيمهم، وما يكسوهم به سبحانه من الهيبة، والوقار، وما يجعله في قلوبهم من الهداية والنور.

٣. ما يجدونه في قلوبهم من اللذة والبهجة والأنس والصفاء. وكلما أخلص العبد لله تعالى زاده عز وجل نوراً في قلبه، وصفاء في عقله، وقوة في بدنه، وبركة في أهله وماله.

قال بعض العارفين: مساكين أهل الدنيا! خرجوا من الدنيا ولم يذوقوا نعيمها.! فقيل له كيف ذلك.؟ فقال: حلاوة الطاعة، ولذة العبادة.

وقال بعضهم: أهل الليل في ليلهم، ألذ من أهل اللهو في لهوهم.

وقال آخر: لو لم يكن للعاملين بهذا الدين عوض على أعمالهم إلا ما يجدونه من لذة العبادة وحلاوة المناجاة لكفاهم ذلك.

وعلى العكس من ذلك ما يحصل من البلاء والمرض والذل والضيق وتشتت الفكر لمن خالف أحكامه، ونبذ أوامره ونواهيه.

وهذا نظير الإنسان يأكل طعاماً يلائمه.. أو ينزل منزلاً طيب الهواء والماء، فيصح جسمه، ويقوي بدنه، ويبتهج ويسر.

وعلى العكس من ذلك إذا أكل طعاماً رديئاً، أو نزل منزلاً وبيئاً فإنه تضمحل صحته، ويسقم صحته، ويسقم جسمه، وينحرف مزاجه.

فالتعاليم الإسلامية.. والشريعة المحمدية في العمل بها الصحة والعافية جسماً وروحاً، والعز والشرف دنيا وأخرى؛ لكونها ملائمة للفطرة... موافقة للطبيعة.

وقد كثر في القرآن والسنة التنبيه على ذلك كقوله تعالى: [اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا[1]] [مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً(٢)]، [وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا[3]].

وفي الحديث: "من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ومن كل

---

[1] سورة نوح الآيات ١٠ – ١٢

[2] سورة النحل الآية: ٩٧

[3] سورة الجن الآيتان: ١٦، ١٧

ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب".

وقال تعالى: [وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا[1]].

وهذه أمور مجربة، وحقائق ثابتة بالحس والمشاهدة والعيان، وهي سنة الله تعالى في خلقه التي لا تجد لها تبديلا ولا تحويلا.

قال الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه: من أدرك علم الكتاب نصاً واستنباطاً ووفقه الله تعالى للقول والعمل به فاز بالفضيلة في دينه ودنياه، وانتفت عنه الريب، ونورت في قلبه الحكمة، واستوجب في الدين موضع الإمامة.

وقال ابن السماك: من أعرض عن الله تعالى بكليته أعرض الله عنه جملة، ومن أقبل على الله تعالى بكليته أقبل الله برحمته إليه، وأقبل بجميع وجوه الخلق إليه، ومن كان مرة ومرة فالله يرحمه وقتاً ما.. قال معروف الكرخي: كنت ماراً بالكوفة، فوقفت على ابن السماك وهو يعظ الناس ويقول ذلك في خلال كلامه فوقع كلامه، في قلبي، فأقبلت على الله تعالى، وتركت جميع ما كنت عليه إلا خدمة مولاي علي بن موسى الرضا، وذكرت هذا الكلام لمولاي.

فقال: يكفيك بهذا موعظة إن اتعظت.

وفي شرح الإحياء للعلامة الزبيدي: التقى الإمام أحمد بن حنبل وأحمد بن أبي الحوري رضي الله تعالى عنهما بمكة، فقال أحمد بن حنبل حدثنا بحكاية سمعتها من أستاذك أبي سليمان الداراني فقال: يا أحمد قل سبحان الله بلا عجب، فقال ابن حنبل: سبحان الله وطولها بلا عجب فقال: ابن أبي الحواري

[1] سورة الإسراء الآية ١٦

سمعت أبا سليمان يقول: إذا اعتادت النفوس على ترك الآثام جالت في الملكوت، وعادت إلى ذلك العبد بطرائف الحكمة من غير أن يؤدي إليها عالم علماً فقام أحمد ابن حنبل ثلاث مرات وجلس ثلاثاً وقال ما سمعت في الإسلام حكاية أعجب من هذه إليّ. ثم قال: حدثني يزيد ابن هارون عن حميد الطويل عن أنس يرفعه: "من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم" ثم قال لإبن أبي الحواري صدقت يا أحمد وصدق شيخك. قال أبو نعيم ذكر أحمد هذا الحديث عن بعض التابعين عن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام فظن بعض الرواة أنه ذكره عن النبي ﷺ. قال الزبيدي ومن شواهده ما أخرجه أبو نعيم بسنده عن الحسين بن علي عن أبيه رضي الله تعالى عنهما رفعه "من زهد في الدنيا علمه الله بلا تعلم، وهداه بلا هداية، وجعله بصيراً وكشف عنه العمى"..

ومصداق هذا قول الله عز وجل: [وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا[(١)]]، وقوله عز وجل: [وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ[(٢)]].

وقال ابن القيم في كتابه "شفاء العليل": "وهل قامت مصالح الوجود إلا بالأمر والنهي، وإرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام، وإنزال الكتب.. ولولا ذلك لكان الناس بمنزلة البهائم يتهارجون في الطرقات، ويتسافدون تسافد الحيوانات، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً، ولا يمتنعون من قبيح، ولا يهتدون إلى صواب، وأنت ترى الأمكنة والأزمنة التي خفيت فيها آثار النبوة.. كيف حال أهلها. وما دخل عليهم من الجهل والظلم والكفر بالخالق!. والشرك

---

(١) سورة النساء الآيات: ٦٦– ٦٨

(٢) سورة العنكبوت الآية: ٦٩

بالمخلوق! واستحسان القبائح، وفساد العقائد والأعمال!. فإن الشرائع بتنزيل الحكيم العليم أنزلها وشرعها الذي يعلم ما في ضمنها من مصالح العباد في المعاش والمعاد، وأسباب سعادتهم الدنيوية والأخروية، فجعلها– سبحانة– غذاءً ودواءً وشفاءً وعصمة وحصناً وثلجاً وجنة ووقاية.. وكانت بالقياس إلى مصالح الأبدان بمنزلة حكيم عالم ركب للناس أمراً يصلح لكل مرض ولكل ألم وجعله مع ذلك غذاء للأصحّاء.. من يتغذى به من الأصحاء غذاه، ومن تداوى به من المرضى شفاه.. وشرائع الرب تعالى فوق ذلك وأجل منه، وإنما هو تمثيل وتقريب، فلا أحسن من أمره ونهيه، وتحليله وتحريمه.. أمره قوت وغذاء وشفاء، ونهيه حمية وصيانة..

فلم يأمر عباده بما أمرهم به حاجة منه إليهم ولا عبثاً. بل رحمة وإحساناً ومصلحة، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلاً منه عليهم، بل حماية وصيانة عما يؤذيهم ويعود عليهم بالضرر إن تناولوه.. فكيف يتوهم من له مسكة من عقل خلوها من الحكم والغايات المحمودة المطلوبة لأجلها.

ولهذا استدل كثير من العقلاء على النبوة بنفس الشريعة، واستغنوا بها عن طلب المعجزة، وهذا من أحسن الاستدلال. فإن دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام من أكبر شواهد صدقهم.. وكل من له خبرة بنوع من العلوم إذا رأى حاذقاً قد صنف فيه كتاباً جليلاً، عرف أنه من أهل ذلك بنظره في كتابه.. وهكذا كل من له عقل وفطرة سليمة، وخبرة بأقوال الرسل ودعوتهم إذا نظر في هذه الشريعة– المحمدية– قطع قطعاً نظير القطع بالمحسوسات أن الذي جاء بهذه الشريعة– صلوات الله وسلامه عليه– رسول صادق، وأن الذي شرعها أحكم الحاكمين.. ولقد شهد لها عقلاء الفلاسفة بالكمال والتمام، وأنه لم يطرق العالم ناموس أكمل ولا أحكم منها.."

فعقائد الإسلام وعباداته، وأحكام معاملاته.. هي التي تجلب الرحمة وتورث العز، والنصر، والخير، والبركة في الدارين.. ولهذا سماه الله تعالى حياة وروحاً حيث يقول: [أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا[1]]، ويقول جلّ شأنه: [وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا[2]]. لأن فيه حياة القلوب والأبدان، وصلاح الباطن والظاهر وإستقامة أمر الدنيا والآخرة.. وشبهه النبي ﷺ أنه قال: "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي جئت به".

أخبر ﷺ أن أنصباء الناس من العلم والدين مختلفة متفاوتة: فمنهم من يسيغه ويفهمه فيعمل به ويعلمه لغيره وهو كالأرض الطيبة النقية التي تشرب الماء فتنتفع في نفسها، وتنبت العشب والزرع فتنفع غيرها. ومنهم من ينفق زمانه في حفظه وتعليمه لكنه لا يعمل بنوافله ولا يتذوق طعمه وحلاوته فهو كالأرض الجدباء التي لا تشرب ماءً ولا تنبت زرعاً، وإنما تمسك الماء فينتفع به الناس. ومنهم الجافي المتكبر الذي لم يدخل في الدين ولم يقبل هداه أصلاً، فهو كالأرض الصماء الملساء التي يمر عليها الماء مرًّا، فلا تشرب فتنتفع. ولا تمسك الماء فينتفع به الغير..

وهذه القسمة ضرورية لاختلاف عقول الناس وطبائعهم، وتفاوت استعداداتهم

---

(1) سورة الأنعام الآية ١٢٢

(2) سورة الشورى الآية ٥٢

على ما اقتضته الحكمة الإلهية، وسبق به تقدير العزيز العليم.

طهارة القلوب والأبدان

تأمل دعوة الإسلام هل تجد فيها إلا تطهير القلوب من شوائب الشرك جلية وخفيه، وتزيينها بمعرفة الله تعالى ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه في الدنيا والآخرة.. وهذا ما يحققه مقام الإيمان.. الذي فسره رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره).. ثم تشريف الجوارح والأبدان بطاعة الله تعالى من طهارة، وصلاة، وصيام، وحج. وهذا مقام الإسلام، وهو أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت الحرام إن استطعت إلى ذلك سبيلاً.. ثم تنوير السرائر بمراقبة الله تعالى واستحضار عظمته وهيبته وجلال ربوبيته. وهو مقام الإحسان. الذي فسره رسول الله ﷺ بقوله: "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"..

ثم تحقيق العدالة العامة بين الناس وإصلاح الاجتماع بصفة عامة بأن يعاون الناس بعضهم بعضاً، ويتم بينهم التآلف والتآزر، وتمهد لهم سبل أرزاقهم، وتهيأ لهم مرافقهم العامة..

ومن العجيب المدهش أن الله تعالى أراد أن يكون هذا الدين بهذه المثابة ديناً يسراً جامعاً لمصالح الدنيا والآخرة وافياً بحظ الجسم والروح.. فأخرجه النبي ﷺ إلى الوجود على هذا الوصف وطبقه تطبيقاً عملياً على مراد الله تعالى ومحبته، حتى شهد له عز وجل بذلك حيث يقول: [الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا[1]]. وقد نزلت هذه الآية في

[1] سورة المائدة الآية: ٣

حجة الوداع.. وعاش بعدها ﷺ زمناً يسيراً، ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى..

وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: "مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها، وترك فيها موضع لبنة، فصار يقال ما أحسنها لو تمت.. فأنا اللبنة التي تم بها الأنبياء".

أمنية أهل العقل

تأمل رعاك الله تعالى وأكرمك.. إن الله تعالى قد شرع هذا الدين ووضعه أمام العقول.. عقول الفلاسفة، وعقول الحكماء، وعقول علماء الاجتماع، وعقول الاقتصاديين، وعقول السياسيين.. وسائر طوائف البشر الممتازين، وفيهم الخصم العنيد، وفيهم المستطلع المتشوف للوقوف على أغوار الأمور.. فما أستطاع أحد من هؤلاء جميعاً أن يطعن على الإسلام طعناً مقبولاً، أو يأتي بما ينقض قاعدة من قواعده وأصلاً من أصوله، وقد تحدَّاهم أكثر من مرة.. وكان المعاصرون لرسول الله ﷺ أهل جدل وخصام.. وفي كثير منهم حسد عليه وامتعاض منه.. ثم من بعد عهد النبوة إلى الآن قد مضت قرون كثيرة.. فهل استطاع الملمون بالفلسفة والمتخصصون في الحكمة أن يزعموا أنَّ هذا الدين في أصل من أصوله أو فرع من فروعه المتفق عليها بين الآئمة ناقض عقلاً أو نافر طبعاً.؟.. كلا..

هل يستطيع ذو عقل أن يدعي القدرة على الإتيان بما يحاكي تعاليم الإسلام أو يدانيها..؟ .. كلا..

وما أحسن قول العلاء بن الحضرمي رضي الله تعالى عنه للمنذر بن ساوي أمير البحرين، عندما أرسله النبي ﷺ له، حيث قال: "يا منذر إنك عظيم العقل في الدنيا فلا تصغرنَّ عن الآخرة.. إن هذه المجوسية شردين، ليس فيها تكرُّم

العرب، ولا علم أهل الكتاب.. ينكحون ما يستحيا من نكاحه، ويأكلون ما يتنزه عن أكله، ويعبدون في الدنيا ناراً تأكلهم يوم القيامة.. ولست بعديم عقل ولا رأي، فأنظر: هل ينبغي لمن لا يكذب في الدنيا أن لا تصدقه؟!.. ولمن لا يخون أن لا تأتمنه؟!..

ولمن لا يخلف أن لا تثق به؟!.. هذا هو النبي الأميَّ الذي والله لا يستطيع ذو عقل أن يقول: ليت ما أمر به ينهى عنه، أو ليت ما نهى عنه يأمر به.. أو ليته زاد في عفوه أو نقص من عقابه.. إذ كل ذلك على أمنية أهل العقل، وفكر أهل النظر".

دين الكمال والجمال

الإسلام دين الكمال والجمال.. عقائده وعباداته، وأخلاقه، وأحكام معاملاته كلها في غاية الكمال والإتقان.. وكلها متساندة مترابطة، يتصل بعضها ببعض، ويشد بعضها بعضاً.

الإسلام لا يرضى بالقشور، ولا يعوِّل على ظواهر الأمور.

قال تعالى: [لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ[1]]. وقال ﷺ: "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى"، وقال عليه الصلاة والسلام: "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسامكم ولكن ينظر إلى قلوبكم".

الإسلام لا يرضى بأنصاف الأشياء.. ولا بأشباح الأعمال دون أرواحها.. لا يرضى أن يعيش الرجل نصف إنسان.. ونصف الإنسان هو الذي يقصر نظره على الدنيا، وينسى الآخرة وحياتها.. وهو الذي يهتم بمطالب الجسد التي

[1] سورة الحج الآية: ٣٧

يشاركه فيها الحيوانات، وينسى مطالب الروح التي تلحقه بأفق الملائكة المقربين..، ولا يرضى بنصف الإيمان.. ونصف الإيمان هو الذي لا يثمر الأحوال السنية والأخلاق الكريمة.. فلا يكون معه إخلاص ولا توكل، ولا زهد ولا رضا ولا سكينه، ولا خوف من الله تعالى، ولا رجاء في رحمته وثوابه، ولا حلم ولا بر، ولا كرم، ولا مروءة، ولا أمانة، ولا عهد ولا وفاء..

قال ﷺ "لا إيمان لمن لا أمانة له.. ولا دين لمن لا عهد له"، وقال عليه الصلاة والسلام "من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له" "من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه".. "من كان يؤمن بالله وباليوم الآخر فلا يؤذ جاره".

وروي عنه ﷺ أنه قال: "إن مثل الإيمان كمثل شجرة ثابتة.. الإيمانُ– يعني هنا خصوص التوحيد– عروقها.. والصلاة أصلها.. والزكاة فروعها.. والصيام أغصانها.. والتأذي في الله نباتها– أي نموها–.. وحسن الخلق ورقها.. والكف عن محارم الله ثمرها..

وقال بعض العارفين: "صدق الإيمان التعظيم لله.. وثمرته الحياء من الله" وقال بعضهم: "التوحيد– يعني اعتقاد أن الله موجود بذاته واحد في ملكه– موجب يوجب الإيمان، فمن لا إيمان له لا توحيد له، والإيمان موجب يوجب الشريعة، فمن لا شريعة له لا إيمان له ولا توحيد له، والشريعة موجب يوجب الأدب، فمن لا أدب له لا شريعة له ولا إيمان له ولا توحيد له..".

فلسفة الإنسانية

الإسلام فلسفة الإنسانية.. أي أنه شرح وتفصيل لما يشعر به الإنسان في نفسه، ويحس بلزومه وضرورته كل عاقل..

لأن الإنسان منألِّه متدين بفطرته.. يشعر بأنه مستند في وجوده إلى غيره، ومقهور بقوة تسيطر عليه.. يريد أن لا ينام، ولا يجوع، ولا يمرض، ولا يموت.. فينام، ويجوع، ويمرض، ويموت.

ويريد أن لا ينسى شيئاً فينساه، ويريد أن ينسى حادثة مفجعة فلا ينساها..

وربما يعزم على شيء فينقض عزمه بلا اختيار منه.. وهذه هي العبودية الموجودة في كل إنسان.. وهي من أعظم دلائل الربوبية.

ولذلك قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ "العبودية جوهرة" لأنها طريق معرفة الله تعالى، ومصدر البحث عنه، والتفكير في الوسائل الموصلة إليه.

والإنسان كذلك مدني بطبعه.. لا يستغنى عن سياسة يقوم بها حياته.. وينظم بها روابطه مع غيره.

فإذا كان الإسلام عبارة عن الدعوة إلى الإيمان بهذا الصانع الحكيم، والخلاق العظيم جل وعلا.. الذي يشعر به كل ضمير، وتحس بسلطانه كل نفس.. وعبارة عن بيان صفاته عز وجل.. وأسمائه وكيفيه العبادات التي يقبلها ويرضاها.. وعبارة عن القانون الذي يحتاج الناس إليه في تنظيم حياتهم، وطرق معاملاتهم بعض مع بعض.. كان– والحالة هذه– هو الفلسفة الحقيقية للإنسان ومواهبه وغرائزه.

فلم يأت الإسلام بشيء غريب، بعيد عن العقول والأذهان [أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ

صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ[1]].

[قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ. وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ[2]].

فالإسلام لم يناقض فطرتنا.. بل فصل مجملها وشرح غامضها، ومهد لها سبل الإصلاح والتهذيب. كل ما أمر به من التوحيد والعدل والأمانة والصدق والعفة والكرم والعز وبرّ الوالدين وصلة الأقارب ومواساة المحتاجين والشرف والشجاعة والمروءة.. أمور تستحسنها العقول السليمة وتقبلها الطباع المستقيمة. وكل ما نهى عنه من الشرك والظلم والغدر والخيانة والكذب وقتل النفس والجبن والبخل.. أمور تستقبحها العقول وتنفر منها الطباع.

جعل لنا أعياداً ومواسم نظهر فيها الفرح والسرور..

لم ينه الناس عن تجارة ولا زراعة ولا صناعة.. ولا عن عادة جروا عليها في حياتهم إلا إذا كانت قبيحة مستهجنة.. عقائده وقوانينه كلها لازمة للإنسان.. وفيها راحة العقل والقلب والبدن وصلاح المعاش والمعاد..

---

(1) سورة يونس الآية: ٢

(2) سورة الأنعام الآيات: ١٥١– ١٥٣

فلو لم يكن هذا الدين مفروضاً علينا لاحتجنا له.. وما أمكننا الإستغناء عنه.. ومهما فكرنا في نظام غيره فلن تجد أحسن منه نظاماً، ولا أرسي منه قواعد؛ ولا أكثر منه فوائد وثمرات..

الإسلام فلسف الإنسانية لأنه استوعب الكلام على النفوس الإنسانية وأحوالها وآفاتها.. وفيه مراعاة طبع الإنسان.. وبيان ما جبل عليه وهو أنه لا يطلب إلا لرجاء ورغبة، ولا يهرب إلا عن خوف ورهبة.. ولذلك رغبة الله تعالى بالجنة وثوابها.. وخوفه بالنار وعذابها..

وفيه أن الإنسان قادر على الإيمان بالغيب متى وضح الشاهد وقام الدليل. ويمكن أن يرجو ويخاف مما ليس معايناً ولا مرئياً..

وهو فلسفة الإنسانية لأن فيه وجه الحيلة على النفس وكيفية صرفها عن شهواتها.. وفيه بيان كيف يقتبس الإنسان العلم وكيف يتعظ.

وهو فلسفة الإنسانية لأنه ينظم علاقة الإنسان بربه، وعلاقته مع أبناء جنسه. وسائر الموجودات الماثلة حوله. وقد وضع كل شيء في نصابه، وقدره بميزاته الذي لا يخسر ولا يطغى.

شرائع الإسلام على مرتبتين

الإسلام هو الدين القيم.. وذلك لأنه راعى أحوال العباد في القوة والضعف، واختلاف طبائعهم واستعداداتهم ووظائفهم في الحياة، فجاءت شرائعه من عبادات.. وأخلاق.. وأحوال على **مرتبتين**:

– مرتبة جواز.. لا يصح تجاوزها والنزول عنها بحال لأنها في متناول الكل وتحت قدرة الجميع، ولأنها هي المفضية إلى جملة المقصود، وليس تحتها شيء يعتبر.

– ومرتبة كمال.. يتنافس فيها المتنافسون، ويتسابق إليها المتسابقون، وهي المفضية إلى المقصود على الوجه الأكمل.. وهي في نفسها درجات تتفاوت: بعضها أعلى من بعض.. وهذا منتهى الحكمة والرحمة.

إذ لا سبيل إلى أن يكلف الجميع بإقامة الآداب والكمالات ومراعاة الفضل في كل شيء.. لأنه بمنزلة التكليف بالمحال في حق الضعفاء، والمشتغلين بالمكاسب.. ولا سبيل إلى أن يكتفي بالأدنى، ويهمل الأعلى وهو مشرب السابقين، وحظ الأقوياء..

وقد كان رسول الله ﷺ يراعي أحوال الناس، ويعطي كلا ما يناسبه. جاءه مرة أعرابي فقال: "يا رسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة ويبعدني عن النار.. فقال ﷺ: تعبد الله ولاتشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان.. فقال: فهل عليّ غيرها؟! قال: لا.. إلا أن تطوَّع.. فقال: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص.. فلما ولّى.. قال صلى الله عليه وسلم: من سرَّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا.!" والحديث في البخاري بألفاظ مختلفة.

فأنظر كيف دلَّ رسول الله ﷺ هذا الأعرابي على مجرد الفرائض وهي مرتبة الجواز. ولم يأمره بصلاة الضحى ولا بقيام الليل، ولا بغير ذلك من النوافل والرغائب. مع أنه لم يكتف من عبدالله بن عمر رضي الله عنهما بمثل ذلك. بل حثه على قيام الليل بقوله: إن عبدالله رجل صالح لو كان يقوم الليل.. ومن ثمَّ لم يترك ابن عمر بعد ذلك قيام الليل حتى مات.

وما ذاك إلا أنه ﷺ أنس في ابن عمر قوة في الحال، وفراغاً من الشواغل لم يأنسهما في الأعرابي..!!

هذا هو التفاوت في العبادات.. وأما بالنسبة للأخلاق فقد قال الله تعالى: [وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ(1)].. وهذه الآية الكريمة فيها المرتبتان: مرتبة الجواز، وهي جزاء سيئة سيئة مثلها..، ومرتبة الكمال وهي العفو والإصلاح.. وهي التي كان رسول الله ﷺ متصفاً بها بل كان في أعلى درجاتها، وأقصى غاياتها.

وفي أسباب النزول أن مسطح بن أثاثة، لما خاض في شأن عائشة الصديقية رضي الله تعالى عنها مع من خاضوا في قصة "الإفك" شق ذلك على أبي بكر ﷺ وعز عليه أن يتكلم في ابنته أم المؤمنين، وزوجة سيد المرسلين وهو قريبه، وكان ينفق عليه من ماله.. فأقسم أن لا يجرى عليه شيئاً من النفقة بعد اليوم مجازاة له ببعض ما يستحق.. ولكن هذه المرتبة وهي مرتبة الجواز وإن صلحت لغير أبي بكر.. فإنها لا تصلح لمقام هذا الصديق الأكبر. صاحب المختار ﷺ، ورفيقه في الغار، الذي لا ينبغي له إلا أن يكون على قدم صاحبه صلوات الله وسلامه عليه، ومن الأخذ بالكمال، وهو إيثار العفو والصفح عن المسيء مهما يكن جرمه..

لذلك عاتبه الله بقوله: [وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا(2)].

وأما بالنسبة للأحوال والمقامات فمما يدل على تفاوتها قوله صلى الله عليه وسلم في تفسير الإحسان: "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"..

فقد جمعت هذه العبارة الشريفة مقامي المشاهدة.. والمراقبة، والأولى أن

---

(1) سورة الشورى الآية: ٤٠

(2) سورة النور الآية: ٢٢

تعبد الله كأنك تراه وهي أتم وأكمل.. والثانية أن تعبده مستحضراً أنه يراك، وهي أدنى من الأولى إلا أنها في حيز الكمال ونظير هذا ما روي أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنهما يقول: "إذا استطعت أن تعامل الله تعالى بالرضا فأرض.. وإلا فعليك بالصبر".. فمعاملة الله تعالى بالرضا– وهو ابتهاج القلب وسروره بما يجريه عز وجل على عبده ويقسمه له، حلواً كان أو مراً– هي مرتبة الكمال. فمن استطاعها فليتحقق بها وإلا فدونه مرتبة الجواز وهي مقام الصبر، الذي هو عبارة عن ترك الاعتراض على المقادير وإن أحس بالبلاء وكره ذلك بطبعه.

ومن تتبع النصوص وجد من هذا شيئاً كثيراً.. كقوله ﷺ: "بني الإسلام على خمس" مع قوله مرة أخرى: "الإيمان بضع وستون شعبة" فالخمس وهي شهادة أن لا إله إلا الله، وأن مُحَمَّداً رسول الله، والصلاة والصيام، والزكاة، والحج هي الفرائض اللازمة لكل أحد.. والشعب الأخرى منها نوافل ورغائب.. ومنها فرائض تجب على بعض الناس دون بعض، على حسب وظائفهم في الحياة.

وندب رسول الله ﷺ الناس مرة إلى الصدقة. فجاء عمر ﷺ بشطر ماله، وأبو بكر ﷺ بماله كله، فأقرهما على فعلهما.

وطلب منه بعض أصحابه مرة أن يخرج عن جميع ما له فلم يقره على ذلك.

الدين الرسمي

الإسلام هو الدين الرسمي للعالم كله.. منذ بعث الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم وإلى أن تقوم الساعة، لا يسمع به أحد إلا لزمته دعوته، وتوجهت إليه أحكامه وتكاليفه.. بل لو بعث آدم ونوح وإبراهيم وموسى وداود وعيسى

وغيرهم من رسل الله تعالى عليهم الصلاة والسلام، وكانوا أحياء الآن لما دعوا إلى الله تعالى إلا بهذا الدين، ولا جاهدوا إلا في سبيل نشره، وإشاعة أمره.

وكانوا في مقدمة أنصار نبينا ﷺ وأعوانه. كما قال ﷺ: "لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعي" وذلك لأنه ﷺ هو الذي أكمل الله تعالى به الدين، وشيد قواعد اليقين، (فلم يبق– كما قال الشيخ ابن تيمية– معروف تعرف العقول أنه معروف إلا أمر به.. ولا منكر تعرف العقول أنه منكر إلا نهي عنه. لم يأمر بشيء فقيل ليته لم يأمر به، ولا نهى عن شيء فقيل ليته لم ينه عنه.. وأحل الطيبات لم يحرم شيئاً منها.. كما حرم في شرع غيره، وحرم الخبائث لم يحل منها شيئاً كما استحله غيره– يعني استحله برأيه لا بتشريع من الله– وجمع محاسن ما عليه الأمم: فلا يذكر في التوراة والإنجيل والزبور أمر من الخبر عن الله وعن الملائكة، وعن اليوم الآخر إلا وقد جاء به على أكمل وجه، وأخبر بأشياء ليست في هذه الكتب.. فليس في تلك الكتب إيجاب العدل، وقضاء بفصل، وندب إلى الفضائل، وترغيب في الحسنات إلا قد جاء بما هو أحسن منه.. وإذا نظر اللبيب في العبادات التي شرعها وعبادات غيره من الأمم ظهر فضلها ورجاحتها.. وكذلك في الحدود والأحكام، وسائر الشرائع.. وأمته أكمل الأمم في كل فضيلة، فإن قيس علمهم بعلم سائر الأمم ظهر فضل علمهم، وإن قيس دينهم وعباداتهم وطاعاتهم لله بغيرهم ظهر أنهم أدين من غيرهم، وإذا قيس شجاعتهم وجهادهم في سبيل الله وصبرهم على المكاره في ذات الله ظهر أنهم أعظم جهاداً وأشجع قلوباً، وإذا قيس سخاؤهم وبذلهم وسماحة أنفسهم بغيرهم تبين أنهم أسخى وأكرم من غيرهم..

وهذه الفضائل به– ﷺ– نالوها ومنه تعلموها.. وهو الذي أمرهم بها.. لم يكونوا قبله متبعين لكتاب، جاء هو بتكميله، كما جاء المسيح بتكميل شريعة

التوراة.. فكانت فضائل أتباع المسيح- عليه الصلاه و السلام- وعلومهم بعضها عن التوراة، وبعضها من الزبور وبعضها من النبوات، وبعضها من المسيح وبعضها ممن بعده كالحواريين، ومن بعد الحواريين.. وقد استعانوا بكلام الفلاسفة وغيرهم حتى أدخلوا في دين المسيح أموراً ليست منه.

وأما أمة محمد ﷺ فلم يكونوا قبله يقرأون كتاباً. بل عامتهم ما آمنوا بموسى وعيسى وداود- عليهم الصلاة والسلام- والتوراة والإنجيل والزبور إلا من جهته، فهو الذي أمرهم أن يؤمنوا بجميع الأنبياء ويقروا بجميع الكتب المنزلة من عند الله.. ونهاهم أن يفرّقوا بين أحد من الرسل).

وفي كتابنا "أساس السعادة" ما نصه: من تأمل في نصوص الشريعة الإسلامية الغراء وجد أنها مبنية على العدل والرفق ومراعاة المصالح والحقوق.. ومنع التعدي وصيانة الآداب، وتأسيس النظام في كل شيء.

كما قال تعالى في كتابه العزيز: [إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ[1]].

فهي شريعة عادلة حكيمة خالية من العسر والحرج، بعيدة عن التفريط والإفراط في كل شيء، تحض على طلب الآخرة، ولكنها لا تحرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق وتعظّم حق الله تعالى وتجعله هو الأولى بالأداء ولكنها لا تهمل حقوق المخلوقين.

يدلك على هذا قوله تعالى: [وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ

---

[1] سورة النحل الآية: ٩٠

اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ[1]]. وقوله عزّ وجل: [قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ[2]].

وفي صحيح البخاري عن أنس ﷺ قال: "جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ. فلما أخبروا كأنهم تقالّوها– عدوها قليلة– فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ! قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.. فقال أحدهم: أما أنا.. فإني أصلي الليل أبداً. وقال آخر: .. أنا أصوم الدهر ولا أفطر.. وقال آخر: .. أنا اعتزل النساء فلا أتزوج.. فجاء رسول الله ﷺ فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا.. أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء.. فمن رغب عن سنتي فليس مني".

بين رسول الله ﷺ بهذا الحديث الشريف أن خشية الله تعالى وتقواه.. لا تدعوان إلى التبتل بمواصلة الصيام والقيام والإعراض عن الدنيا بالكلية.. بل من كمال الخشية والتقوى أن يرفق المؤمن بنفسه، ويعطي كل ذي حق حقه.

ومثله ما أخرجه البخاري أيضاً عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: "بينما النبي ﷺ يخطب.. إذ هو برجل قائم فسأل عنه فقالوا أبوا إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم.. فقال النبي ﷺ: "مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه".

فأنظر كيف لم يقره ﷺ على القيام وعدم الكلام وترك الإستظلال.. وإنما أمره فقط بإتمام الصيام، لعلمه أن الصوم لا يشق عليه، ولكون الصوم عبادة مشروعة.

[1] سورة القصص الآية: ٧٧

[2] سورة الأعراف الآية: ٣٢

وفي البخاري أيضاً "أن النبي ﷺ.. آخى بين سلمان وأبي الدرداء رضي الله عنهما فزار سلمان أبا الدرداء.. فرأى أم الدرداء- زوجة أبي الدرداء- متبذّلة فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا.. فجاء أبو الدرداء.. فصنع له طعاماً. فقال: كل. قال: إني صائم.. قال: ما أنا بآكل حتى تأكل فأكل. فلما كان الليل.. ذهب أبو الدرداء يقوم فقال: نم.. فنام.. ثم ذهب يقول فقال: نم.. فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن، فصلّيا.. فقال له سلمان: إن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً.. فأعط كل ذي حق حقه.. فأتى النبي ﷺ، فذكر له ذلك. فقال النبي ﷺ: صدق سلمان".

فصوب عليه الصلاة والسلام رأي سلمان وهو الأخذ بالرفق، ومراعاة حقوق الغير.

ومن هذا يعلم أن الشريعة الإسلامية شريعة سمحة كلها نظام، وعدل، ورفق، وإحسان، وللأخلاق والآداب فيها مكانة عليا؛ حتى قال رسول الله ﷺ: "إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله"- أخرجه البخاري ومسلم عن عائشة ﵂.. وقال عليه الصلاة والسلام: "أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وخياركم خياركم لنسائهم"- رواه الترمذي. وقال: حسن صحيح.. لم يقل صلوات الله وسلامه عليه أكمل المؤمنين إيماناً أكثرهم صياماً وقياماً، ولا أطولهم عكوفاً في المساجد.. بل قال أحسنهم خلقاً..!.. وعن أبي هريرة ﵁ قال: "سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، فقال: تقوى الله وحسن الخلق.. وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال: الفم والفرج.." أخرجه الترمذي أيضاً وصححه.. والحكمة في تخصيص الفم، والفرج أنهما أعظم الأعضاء شراً وأكثرها أذية للغير.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: "الإيمان بضع وستون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله.. وأدناها إماطة الأذى عن الطريق.. والحياء شعبة من الإيمان". فأنظر كيف حكم النبي ﷺ بأن للإيمان شعباً كثيرة متنوعة.. وجعل الحياء- وهو خلق يبعث على ترك التقصير في حق ذي الحق- من الإيمان.. وهذا يؤيد ما قلناه من أن الشريعة الإسلامية كلها خلق وأدب.. وكلها مبنية على الحكمة والعدل ومراعاة المصالح والحقوق.. وتأسيس النظام في كل شيء.

ولقد اعتنى العلماء وخصوصاً المحدثين منهم ببيان شعب الإيمان وآدابه المشار إليها في الحديث المتقدم حتى ألف بعضهم- كالإمام البيهقي- في ذلك كتاباً خاصاً سماه "شعب الإيمان" ومما عدوه من هذه الشعب- وهو أهمها وأقدسها- شكر الله تعالى بأداء فرائضه والجهاد في سبيله والإخلاص له في جميع الأعمال.. ومنها أداء الأمانة وحفظ السر وصلة الرحم وبر الوالدين ونصرة المظلوم وإغاثة اللهفان، والتعاون على البر والتقوى والاتحاد وقضاء حوائج الناس والإصلاح بينهم؛ والصدق والعدل والحياء، والشجاعة والكرم والوفاء بالعهد. وإنجاز الوعد.. وإكرام الضيف، وحسن الجوار، والحلم والصبر، والعفو، والعفة والقناعة، والتواضع، وصيانة اللسان عن الكذب والغيبة والنميمة والألفاظ الفاحشة البذيئة، والتخلي عن الكبر والعجب والحسد.. ومنها ترك جميع الفواحش والمنكرات كالسرقة والغصب والتعدي والظلم والخيانة والمكر والخداع وقتل النفس ولعب الميسر وقطع الطريق وأكل الربا وأكل مال اليتيم، وقبول الرشوة وشهادة الزور، ومعاندة الحق، ومحبة الظلمة والفاسقين والغش في البيع والشراء، واحتقار الفقير والاشتغال بعيوب الخلق وتتبع عوراتهم، وإقرار المنكر والرضا بالفجور؛ والسكوت عن الباطل والخروج

عن الجماعة؛ وترك الطاعة لولاة الأمور. وغير ذلك مما يتوقف عليه صلاح العالم وسعادة الأفراد والجماعات.

أضف إلى ذلك.. ما وضعته الشريعة الإسلامية من قواعد النظام في المعاملات نحو البيع والشراء والإجارة، والشركة، والقرض، والرهن؛ والوقف؛ والوصية، والميراث؛ والصلح.. وما مهدته من القضاء وكيفية الشهادات، وإثبات الجنايات وتحديد أنواعها.. والقصاص الواجب فيها..

وما قررته من الحدود.. للزنا، وشرب الخمر، وقطع الطريق، وما رسمته من ضروب الجهاد وكيفية المعاملة مع الأسرى والمحاربين وسائر المخالفين في الدين.

ثم ما وضعته من نظام الأسرة، ومعاشرة الأزواج، وتربية الأولاد وما ينبغي أن يلاحظه المؤمن من الأدب في أكله وشربه، ونومه، وجلوسه، وحديثه،. وبالجملة كل ما يعمله في نهاره وليله، لمعاشه أو لمعاده، مما لا يمكن للقوانين الوضعية والسياسات العقلية أن تفي به.. أو تأتّى عليه..

[وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ(1)]. والحمدلله رب العالمين.

دينكم.. أيها المسلمون

هذا هو الدين الذي ارتضاه الله عز وجل لعباده، وأذن لهم أن يعاملوه بمقتضاه، وأن يعبدوه على منهاجه.

فما بقي لأحد اختيار لعبادة، أو معاملة دنيوية غير ما قرره.

قال الشاذلي ﷺ: كل مختارات الشرع ومرتباته هي مختار الله تعالى، ليس لك فيه شيء.. فأسمع وأطع.

(1) سورة الأعراف الآية ٤٣

والله تعالى يقول: [فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١)].. [فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا(٢)].

وما بقي لشريعة من الشرائع المتقدمة حكم في هذه الحياة الدنيا إلا ما قررته هذه الشريعة المحمدية.. هذا حكم الله تعالى.. وهذا قضاؤه وأمره..

فالطرق كلها مسدودة إلا على من اتبع الإسلام واقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم.. فلا ثواب ولا خير، ولا فتح ولا قبول، ولا وصول إلى الله تعالى ومحبته بعد أن بعث الله تعالى محمداً ﷺ بشريعته الخاتمة لجميع الشرائع، المتضمنة لكل ما فيها من المحاسن والمزايا إلا لمن عمل بهذه الشريعة والتزمها ودان بها.. وإذا مشي العبد على صراطها كان الحق تعالى ناصره ومعينه، ومؤيداً له وراضياً عنه.

قال رسول الله ﷺ في وصيته لابن عباس رضي الله تعالى عنهما: "يا غلام احفظ الله يحفظك.. احفظ الله تجده تجاهك"، وفي رواية أمامك، أي بالمعونة والنصر والحفظ والتأييد؛ وهو كقوله تعالى: [إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ(٣)]. أي إن تمسكتم بما جاء به محمد ﷺ من العقائد والأخلاق والأحكام نصركم الله تعالى، وأعزكم حساً ومعنى دنيا وأخرى.

فيا أيها المسلمون دينكم.. دينكم.. اتبعوه.. وحافظوا على تعاليمه وهو دين مبحوث، ومجهز تجهيزاً كاملاً.. قد بينه رسول الله ﷺ غاية البيان، حتى تركنا على المحجة البيضا، ليلها كنهارها، لا يضل فيها سالك، ولا يزيغ عنها إلا هالك..

---

(١) سورة النور الآية ٦٣

(٢) سورة النساء الآية ٦٥

(٣) سورة محمد عليه الصلاة والسلام. الآية ٧

وخص العلماء- أكرمهم الله تعالى وشكر مساعيهم- علماء الدين الربانيون، وآئمة الحق العارفون.. لخصوا المطلوب في العقائد والأعمال والأخلاق أحسن تلخيص.. فكفوا الناس المؤونة، وأغنوهم عن كثرة البحث والجدال..

خلاصة العقائد الإسلامية

وهذه خلاصة وافية لما ذكروه من العقائد والأصول التي لا يسع المكلف جهلها..

فأول ذلك أن يعتقد المكلف اعتقاداً جازماً، خالياً من الظنون والشبهات أن له ولهذا العالم بأسره علويه وسفليه إلهاً واحداً أوجده، من العدم.. لا إله غيره، ولا زوجة له، ولا ولد، ولا والد.. ولا شبيه ولا نظير.. لا علة لوجوده حتى يكون له أول.. ولا يلحقه الفناء حتى يكون له آخر.. ليس بجوهر فيحتاج لمكان، ولا بعرض يقوم بغيره، ولا بجسم فتكون له جهة من الجهات.. [لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ(1)]- قال بعض المحققين: التوحيد إثبات ذات غير مشبهة للذوات ولا معطلة عن الصفات- لا يبلغ حقيقته الواصفون.. ولا يدرك كنهه المتفكّرون [وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ(2)].. الحي القيوم.. العالم الخبير.. المريد.. المدبر.. القدير.. السميع البصير.. المتكلم.. ذو العرش المجيد.. أحاط بكل شيء علماً.. خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه، وهو أقرب إليه من حبل الوريد.. لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض.. له الأسماء الحسنى.. والصفات العليا.

كلم موسى عليه الصلاة والسلام، وكلم نبينا ﷺ في ليلة المعراج بكلامه

---

(1) سورة الشورى الآية ١١

(2) سورة البقرة الآية ٢٥٥

القديم، الذي هو صفة ذاته، لا خلق من خلقه.. والقرآن الكريم إن أريد منه هذا الكلام القائم بذاته تعالى فهو قديم غير مخلوق..

وإن أريد منه المنزل على نبينا مُحَمَّد ﷺ المؤلف من الأصوات والحروف المكتوب في المصاحف، المقروء بالألسنة فهو حادث.. لكن لا يوصف بالحدوث إلا في مقام التعليم فقط؛ خشية أن يسبق الفهم إلى الصفة القديمة الذي هو دال عليها.

لا يجرى في الكون شيء، ولا يكون من العباد قول، ولا خاطر، ولا حركة ولا سكون: إلا وقد قضاه الله عزّ وجل وقدره، وسبق به علمه وإرادته، خيراً كان أو شراً، طاعة أو معصية.. فمنه تعالى الخير والشر، والنفع والضر، والإسلام والكفر، والفوز والخسران، والطاعة والعصيان.. يضل من يشاء بعدله؛ ويهدي من يشاء بفضله.. وكل ميسَّر بتيسيره سبحانه إلى ما سبق في علمه.. تنزه أن يقع في ملكه مالا يريد، أو يكون لأحد عنه غني، أو يكون هناك خالق لشيء، جلَّ أو قل، إلا هو سبحانه، خالق العباد وخالق أعمالهم، ومقدِّر أرزاقهم وآجالهم.. وليسوا مع ذلك مكرهين ولا مجبورين.. فقد خلق لهم عز وجل إرادة واختياراً، وقدرة تقترن بالفعل، وإن كانت لا تؤثر فيه. فبطل مذهب المعتزلة القائلين أن العبد يخلق أفعال نفسه بقدرته، وأن المعاصي والشرور الجارية في الكون ليست بإرادة الله تعالى وفعله. كما بطل مذهب الجبرية القائلين بأن العبد لا اختيار له أصلاً، وأنه كالريشة المعلقة في الهواء تميلها الريح يميناً وشمالاً.. فالحق بين هذين المذهبين، وهو المتوسط بين الأمرين.. كما قال السلف "أمر بين أمرين: لا جبر ولا تفويض".

وقد قيل للحسن البصري ﷺ: أجبر الله عباده؟ فقال: الله تعالى أعدل من ذلك، قيل: أفوض إليهم؟. فقال: الله أعز من ذلك..

ثم قال: لو جبرهم لما عذَّبهم، ولو فوّض إليهم لما كان للأمر– يعني شأن الألوهية وعزها– معنىً.. ولكن منزلة بين المنزلتين، كبعد ما بين السماء والأرض، ولله فيه سر لا تعلمونه".

وقد بعث الله تعالى الرسل عليهم الصلاة والسلام إلى العباد لإقامة الحجة عليهم وبيان أمره تعالى ونهيه.. ووعده ووعيده، وسائر ما ينفعهم في دينهم ودنياهم.. وهم بشر من جملة الناس، مولودون من ذكر وأنثى، إلا آدم عليه الصلاة والسلام، فقد خلقه الله تعالى من تراب.. وعيسى عليه السلام فإنه لا أب له.. كما نص على ذلك القرآن الكريم.. وإن كانوا بشراً ممتازين وعباداً مكرمين بالوحي والرسالة، معصومين عن سائر النقائص، والعيوب، متصفين بالأمانة والصدق والفطانة، وهي حدة العقل وقوة الذكاء. لأنهم أرسلوا لإقامة الحجج وإبطال شُبه المجادلين، وهداية الناس إلى الخير فلا بد أن يكونوا كذلك.

أولهم آدم عليه الصلاة والسلام. وهو أبو البشر، وأصل النوع الإنساني كله.. وآخرهم سيدنا ومولانا مُحَمَّد ﷺ. فهو خاتم النبيين وسيد المرسلين. وأفضل الخلق أجمعين.. بعثه الله تعالى بشيراً ونذيراً وداعياً إليه بإذنه وسراجاً منيراً.. وأنزل عليه كتابه الحكيم، وهدى به الصراط المستقيم، وأيده بالمعجزات الباهرات والآيات البينات..

ومما يجب الإيمان به. أن هذه الدنيا منقضية ولابد.. وأن الساعة آتية لا ريب فيها.. وأن الله تعالى يبعث من في القبور. فيعيد الخلق كما كانوا في الدنيا بأجسادهم وأرواحهم. ويومئذ يعرضون على الله تعالى لحسابهم، وتوضع الموازين لوزن أعمالهم. ويؤتون صحائف أعمالهم، مدوَّناً فيها كل ما عملوه خيراً كان أو شراً.

ومن ذلك الإيمان بالصراط: وهو جسر مضروب فوق متن جهنم، يجوزه العباد على حسب أعمالهم.. فمنهم ناجون، وهم مختلفون في سرعة النجاة

ومنهم من أوقعتهم أعمالهم في النار.

وكذلك يجب الإيمان. بحوض رسول الله ﷺ. الذي ترده أمته، من شرب منه لا يظمأ أبداً.. ويطرد عنه من بدَّل وغير.

ومما يجب اعتقاده أن الله تعالى خلق الجنة وأعدّها دار خلود للمؤمنين.. وأكرمهم فيها بالنعيم المقيم. وبالنظر إلى ذاته العلية، من غير تكييف ولا تشبيه.. وخلق النار، وأعدها دار خلود لمن كفر به وبأنبيائه.

ومن أدخله النار من عصاة المؤمنين أخرج منها بإيمانه، وبشفاعة النبي ﷺ أو غيره من المصطفين الأخيار.

ومما يجب اعتقاده أيضاً أنه لا يكفر أحد من المسلمين بذنب.. وأن الله عز وجل ضاعف للمؤمنين الحسنات [مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا[1]]. وصفح لهم بالتوبة عن كبائر السيئات، وجعل من لم يتب صائراً إلى مشيئته.. إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه. [إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ[2]] وأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أحياء في قبورهم.. لا تأكل الأرض أجسادهم ولا تغير منها شيئاً.. وكذلك الشهداء أحياء في قبورهم عند ربهم يرزقون، وأن أرواح أهل السعادة باقية ناعمة.. وأرواح أهل الشقاوة معذبة إلى أن يحيي الله الموتى، ويعيد الأرواح للأجساد، ويصير إلى كل واحد إلى مقرّه من الجنة أو النار..

وأن الأموات يسألون في قبورهم.. وأن على العباد حفظة من الملائكة يكتبون أعمالهم، مع أن شيئاً من ذلك لا يخفى على الله تعالى.. وأن ملك

---

(1) سورة الأنعام الآية: ١٦٠

(2) سورة النساء الآية: ٤٨

الموت يقبض الأرواح بإذن ربه عز وجل..

وأنه لا يصح قول ولا عمل إلا بنيَّة.. ولا قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة.. وأن خير القرون الذين رأوا رسول الله ﷺ وآمنوا به وعزَّروه ونصروه.. وهم الصحابة الكرام ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم..

وأفضل الصحابة الخلفاء الراشدون.. أبو بكر.. ثم عمر.. ثم عثمان.. ثم علي رضي الله تعالى عنهم جميعاً.. وينبغي أن لا يذكر أحد من الصحابة إلا بأحسن ذكر، وأن يمسك عمَّا جرى بينهم.. ويُلتمس لهم أحسن المخارج.. ويجب اتباع السلف الصالح، واعتبار ما فهموه واستنبطوه من الأحكام لأنهم القدوة، وهم فوقنا في العقل والعلم والاجتهاد.

ويجب طاعة آئمة المسلمين– وهم ولاة أمرهم– ما لم يأمروا بما خالف الدين، وإلا فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

ومما يجب اعتقاده أن جميع ما أخبرنا به رسول الله ﷺ في الكتاب العزيز أو السُنة النبوية من أحوال البعث والحشر والحساب، والجنة ونعيمها، والنار وعذابها.. وكذلك نعيم القبر وعذابه.. وسؤال الملكين فيه.. والحوض والميزان والصراط.. وغير ذلك كله محمول على ظاهره.. لا رمز فيه ولا تمثيل.. بل البعث بعث حقيقي، تعاد فيه الأرواح للأجساد حقيقة، والحوض والميزان والصراط حقائق موجودة وأمور حسّية.

والجنة دار حقيقية حسية، فيها أكل وشرب وجماع ولذات حقيقية.. والنار كذلك. فيها سلاسل وأغلال وزقُّوم، وشراب الحميم حقيقة. وإن كان ذلك فوق المعهود في الدنيا.. وكذلك ما ورد في القرآن الكريم، والسنة النبوية من ذكر الملائكة والجن محمول على ظاهره.. فالملائكة أجسام نورانية لا يأكلون

ولا يشربون، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

والجن أشخاص حقيقيون مخلوقون من النار. منهم المؤمن ومنهم الكافر وهم مكلفون بشريعتنا، لهم ما لنا وعليهم ما علينا.

وكذلك ما ورد في الكتاب والسنة من قصص الأنبياء السابقين عليهم الصلاة والسلام وأحوال الأمم الغابرة.. وما ورد في أثناء هذه القصص من أسماء الأشخاص والبلاد.. كل ذلك حق ثابت، محمول على ظاهره المعهود منه في اللغة والعرف لا تمثيل فيه ولا تخييل.

وكذلك ما ورد فيهما من الأحكام التكليفية كالصلوات الخمس في اليوم والليلة. وصيام شهر رمضان. والزكاة، والحج والجهاد. والحدود، وما نهى الله تعالى عنه من المحرمات: كقتل النفس، والزنا، وشرب الخمر، وأكل الربا، وغير ذلك من الأوامر والنواهي كله حق، محمول على ظاهره، مكلف به كل عاقل في كل زمان ومكان.. كما بينه ﷺ وتلقاه عنه أصحابه الثقات العدول، الذين تشرفوا بمشاهدته ومشافهته، وحضروا التنزيل، وعرفوا طرق العلم ووجوه التأويل، ووقفوا منه ﷺ على كيفية العمل وطريقة الأداء لجميع الشعائر والعبادات والمعاملات.. من أنكر شيئاً من ذلك أو شك فيه فهو كافر حلال الدم.. ومن قصر في أدائه من غير عذر شرعي فهو عاصٍ آثم، يجب على ولاة الأمر ردعه وزجره.

نبينا صلى الله عليه وسلم

حبيب رب العالمين، وأفضل الخلق أجمعين.. بشر لا كالبشر.. في ظاهره وباطنه.. في جسمه وعقله وروحه.. عقله أسنى العقول وأكبرها.. وفطرته أصفى الفطر وأطهرها، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور.

وقد حمل من أعباء النبوة، ومشاق الدعوة إلى الله تعالى ما لا تحمله الجبال. فاق الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام في أخلاقه ومعجزاته، ومعرفته بربه، وإطلاعه على أمور الغيب، وإصلاحه لشئون العالم.

حاز خصال الآدمية الكاملة.. وأحرز خصال النبوّة والرسالة على أكمل الوجوه وأتمها.

أعم الرسل رسالة، وأكثرهم أتباعاً، وأعظمهم جاهاً، وأولهم شفاعة يوم القيامة.

أبلغ الدعاة إلى الله تعالى.. وأكبر المصلحين.. ومنبع السعادة.. ومورد العلم والهدى.. ورحمة العالمين في الدنيا والآخرة.

وجوده رحمة.. وبعثه رحمة.. وكل ما يصدر منه سعادة ورحمة.. امتثال أمره سعادة ورحمة.. واجتناب نهيه سعادة ورحمة.. والتخلق بأخلاقه سعادة ورحمة.. والتعلق بجنابه سعادة ورحمة.. والصلاة عليه ﷺ سعادة ورحمة.. والتوسل بجاهه سعادة ورحمة.

أسعده الله تعالى بعصمته، واختاره لوحيه، وجعله علماً على دينه، وحجة على خلقه، وربط به سعادة الناس في معاشهم ومعادهم، وشغل به التاريخ كله، لا من يوم بعثته فقط. بل من مبدأ العالم:

ما مضت فترة من الرسل إلا … بشرت قومها بك الأنبياء

تتباهى بك العصور وتسمو … بك علياء بعدها علياء

منه انشقت الأسرار، وانفلقت الأنوار.. شحذ العقول، وحفز الهمم، ونبه الأفكار وأشعل مصابيح القلوب، وشفاها من أمراض الجهالة والضلال.

شيد أركان الشريعة للعالمين.. وأوضح أفعال الطريقة للسائرين.. ورمز في علوم الحقيقة للعارفين.

طاعته طاعة الله، وحكمه حكم الله، ومخالفة أمره موجب لغضب الله تعالى وسخطه.. إذ لا يقول ﷺ قولاً، ولا يفعل فعلاً إلا برضا الله تعالى وبإذنه.. وقد رأيت في سورة واحدة من القرآن الكريم وهي سورة (التوبة) بضعة عشر موضعاً ذكر فيها إسمه ﷺ مقروناً بإسم الله تعالى للدلالة على هذا المعنى: [بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ[1]] [وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ..]، [كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ..]، [وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آَتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ..]، [إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ..]، [فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ..]، [وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ..]، إلى غير ذلك.

وقال الإمام أحمد: "نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في ثلاثة وثلاثين موضعاً، ثم جعل يتلو [فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[2]]. ويكررها ويقول: الفتنة الشرك. لعله إذا رد بعض قوله ﷺ أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك ثم تلا قوله تعالى: [فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا[3]].

والدلائل على نبوة نبينا ومولانا مُحَمَّد ﷺ وعلى عظمته كثيرة جداً.. وكل واحد منها صالح لأن يكون دليلاً مستقلاً لو انفرد. فكيف وقد اجتمعت كلها فيه.. وهي على ضربين:

---

(1) سورة التوبة، الآيات: ١، ٧، ٥٩، ٧٤، ٩١، ١٠٥، ١٠٧

(2) سورة النور، الآية ٦٣

(3) سورة النساء الآية: ٦٥

منها الجلي الظاهر، الذي يعرفه كل ناظر ولا يمارى فيه إلا من ألغى عقله واتبع شيطانه وهواه. كالمعجزات الحسية التي وقعت له ﷺ.. من حنين الجذع.. وانشقاق القمر.. ونبع الماء من بين أصابعه الشريفة.. وإخباره بالمغيبات.. وعلى رأسها القرآن الكريم.

ومنها الخفي كالإعجاز في خلقه. صدقه. وحكمته. واعتدال أمره كله. والحكم والأسرار التي يدركها الخاصة في أفعاله وتصرفاته.. وكالأنوار التي كانت تلوح على وجهه الشريف صلوات الله وسلامه عليه.

ومن أعظم دلائل نبوته ﷺ أنه قد بلغ في الحكمة النظرية كمعرفة الله تعالى وصفاته، وأسمائه، وأحكامه.. وفي الحكمة العملية وهي علم الأخلاق، وسياسة البدن، وتدبير أمر الخلق المبلغ العظيم، الذي لا يمكن للعقلاء الوصول إليه في مئات السنين.. وقد وصل إليه بغتة من غير تعلم ولا مخالطة لأحد معروف بالعلم.

كفاك بالعلم في الأميّ معجزة   في الجاهلية والتأديب في اليتم

ولقد ضرب ﷺ بسيرته الطاهرة وأخلاقه الكريمة أروع الأمثال مما كان متحلياً به من صفات ذاته وشمائله قبل النبوّة وبعدها.

وعندي أن الإتجاه بالفكر إلى هذه الناحية منه ﷺ يكفي الإنسان لأن يضع فيه ثقته، ويأخذ الدين عنه قضية مسلمة.. إذ لا عقل، ولا علم، ولا إخلاص، ولا نصيحة، ولا صراحة، ولا بعد عن الأغراض، ولا نزاهة، ولا مراقبة لله تعالى كما كان ﷺ.

وإن قلباً يعرف ذلك عنه صلوات الله وسلامه عليه ولا يُحبه ولا يثق فيه لهو قلب جافٍ، لا يخضع للحق، ولا يذعن للحجة، ولا يقدر قيمة الفضل والكمال.

قال أبو حمزة البغدادي: من تبع أثر الدليل الصادق الناصح بلغ عن قريب إلى مقصده، ولا دليل على الطريق إلى الله تعالى إلا متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم في أحواله وأفعاله وأقواله.

قال تعالى: [يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا. وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا[1]].

أرسلناك شاهداً على صحة الدين، وتوحيد رب العالمين، يعني مقرراً لذلك ومبرهناً عليه:

١. بما جبلت عليه من الأخلاق الكريمة والشيم العالية.. كما قالت السيدة خديجة ﵂: "إنك لتصل الرحم. وتحمل الكلَّ. وتقرى الضيف، وتكسب المعدوم. وتُعين على نوائب الحق".

٢. وبسيرتك الطاهرة الشريفة طوال حياتك في السلم والحرب، والأمن والخوف.. فلم تستعمل حيلة، ولم تعد وعداً كاذباً، ولم تستعن على نصر حقك بباطل قط.. وهذا بخلاف المألوف في الفاتحين.

٣. وبما بثثته من العلوم النافعة في الدين والدنيا، التي لا حصر لها، وليس فيها إلا الحق الموافق لقضايا العقول، وسنن الكون، ونظام الحياة.

٤. وبما أجراه الله تعالى على يديك من المعجزات المستلزمة لصدقك التي دلالتها على التصديق أبلغ من كل دلالة.

وقد أعطاك الله تعالى أنواعها كلها.

٥. وبكلامه عز وجل الدال دلالة قاطعة على أنه كلام الله تعالى بفصاحته

---

[1] سورة الأحزاب الآية: ٤٥، ٤٦

الفائقة، وبلاغته الباهرة، وباحتوائه على أصناف المعارف والعلوم.

"ومبشراً" للمؤمنين والطائعين بالجنة "ونذيراً" للكافرين والعاصين بالنار والعذاب "وداعياً إلى الله" إلى توحيده ومعرفته وطاعته. لا إلى دنيا ومال، ولا إلى رياسة وملك "بإذنه" بتوفيقه وتيسيره "وسراجاً منيراً" تقتبس منك البصائر نورها، وتضيء بك العقول في مسالكها.. فأنت للبصائر والعقول كالسراج للأبصار. وفي هذا إشارة إلى أنه ﷺ جاء بما يوافق الفطرة والعقل، ويذكر بما هو مركوز فيهما. وهذا هو الواقع، فجميع ما جاء به حق ثابت، لا خلل فيه ولا تفاوت.

واعلم: أن أصل وجود النبي ﷺ.. وظهور المعجزات على يديه: كنبع الماء من بين أصابعه، وحنين الجذع.. والقرآن الكريم.. وما كان عليه من خلال الخير وصفات الكمال، من أمانة وصدق، وشجاعة وكرم، وبر وإحسان، وحلم وعلم ورحمة.. إلخ كل ذلك أمور محسوسة مشاهدة معاينة لا تحتاج إلى إقامة برهان.. ولا خلاف فيها لمؤمن وكافر، وصديق وعدو.. شاهدها من عاصره وصحبه وعاشره، ونقلت تواتراً قطعياً لمن جاء بعده.

أما كونه ﷺ نبياً ورسولاً، يتصل بالغيب ويتلقى وحي الله تعالى. فهذا هو المعلوم بطريق النظر والإستدلال.. وهو مدار الخلاف بيننا وبين المنكرين لنبوته ﷺ. فنحن نقول– والحق ما نقول–: إن هذه الشمائل الكريمة والمعجزات الخارقة للعادة، وهذه العلوم التي ظهرت عليه ﷺ، شواهد جليَّة، بل دلائل قطعية على اختصاصه بالنبوّة، لأنها ليست في طوق البشر، ولا هي في متناول مداركهم وقواهم في مستمر العادة. والمخالفون ينكرون هذا.. ولا حجة لهم إلا الجهل المطبق والضلال المبين. [وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا[1]]

---

[1] سورة المائدة الآية ٤١

القرآن الكريم

القرآن الكريم.. هو كتاب الله تعالى تنزيل الحكيم الحميد، نزل به الروح الأمين على قلب النبي ﷺ ليكون للعالمين نذيراً.

رسالة الله تعالى إلى عباده، وعهده إلى خلقه.. "فيه- كما قال رسول الله ﷺ- نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، هو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تليبس به الألسنة، ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: [إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآَنًا عَجَبًا. يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآَمَنَّا بِهِ[1]]. من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم."

هو المعجزة الكبرى، والآية الخالدة، يتحدى الزمن ويصارع الأيام. لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

لا يعتريه شك.. ولا يتطرق إليه تغيير ولا تبديل [إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ..[2]]

أعجز البلغاء والفصحاء، وأعي أرباب القول وعباقرة البيان.

تهز القلوب روعته. ويأسر الألباب سحر بلاغته.

سمعه العرب وفيهم الشاعر المطبوع، والخطيب المنطيق فخرّوا له سجداً وجثوا تحت قدميه مع أنهم كفرة لا يؤمنون.

---

[1] سورة الجن الآيتان: ١،٢

[2] سورة الحجر الآية: ٩

ليس شعراً مما ينظم الشعراء.. ولا هو نثر مما يقول الخطباء. أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض. [اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ(١)].

والمتأمل في إعجاز القرآن يجده– أيضاً– على ضربين:

ظاهر يعرفه كل عاقل، ويدكه كل ناظر، كقوله تعالى: [قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا(٢)]، وقوله: [فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا(٣)].

فإن هذا كلام لا يمكن أن يصدر إلا من الله تعالى، ولا يقوله بشر من عند نفسه أبداً. فإن العظمة التي فيه عظمة الربوبية، والسطوة التي عليه ليست إلا سطوة الألوهية. عظمة الله العزيز الذي يتكلم والملك ملكه، والبلاد بلاده، والعباد عباده. لا منازع له في ذلك ولا متصرف سواه.

وقد تحقق ذلك فعلاً، فلم يمكن لأحد أن يأتي بمثل القرآن ولا بآية منه إلى وقتنا هذا.. وإلى أن تقوم الساعة.

وكقوله تعالى: [وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ(٤)]، وقد عصمه الله تعالى على كثرة ما خاض من المعارك، وتعرض له من الأهوال والمخاطر.

وقوله تعالى: [هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى

(١) سورة الزمر الآية: ٢٣

(٢) سورة الإسراء. الآية: ٨٨

(٣) سورة البقرة. الآية: ٢٤

(٤) سورة المائدة. الآية: ٦٧

الدِّينِ كُلِّهِ[1]].

وقد أظهر الله تعالى دينه، ونشره في الآفاق، وغلب بحججه وبراهينه حتى ملأ الدنيا، وذلت له الألوية والأعلام، وألف الناس فيه تآليف لا تحصى ولا تعد.

ولذلك كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما يذكران المجاهدين بذلك لتثبيتهم وتقوية قلوبهم.

وخفي دقيق، لا يعرفه إلا أهل العلم والحكمة، كما قال عز وجل: [وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ[2]]، وقوله: [وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ[3]].

وهو ما فيه من العلوم والمعارف، والحكم والأحكام، التي يعرف الخاصة أنه لا مجال للعقل فيها، ولا يمكن لمفكر وحكيم مهما بلغ من الذكاء والحذق أن يأتي بمثلها، وكالفصاحة التي لا يعرفها، ولا يتذوقها إلا العربي الأصيل، أو من وقف على خصائص اللغة وأساليبها.

جاء عتبة بن ربيعة وهو الكافر العنيد إلى رسول الله ﷺ يصده عن الدعوة ويستميله إليه ويغريه بالمال والجاه فقال: "يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت، من خيارنا حسباً ونسباً، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم. فرّقت به جماعتهم، وسفهت أحلامهم، وعبت آلهتهم ودينهم وكفرت من مضى من آبائهم. فأسمع مني: أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبل منا بعضها.

---

(1) سورة الفتح الآية: ٢٨

(2) سورة سبأ. الآية: ٦

(3) سورة العنكبوت. الآية: ٤٣

فقال عليه السلام: قل يا أبا الوليد: أسمع: فقال: يا ابن أخي إن كنت تريد بما جئت من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا، حتى لا تقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًّا من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوي.

فقال عليه الصلاة والسلام: أفرغت يا أبا الوليد.؟ قال: نعم. قال: فاسمع مني– فقرأ رسول الله ﷺ سورة فصلت: [حم. تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ. وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ. قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ. الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ. قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ. ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ[(١)]].

وهنا أمسك عتبة بفيه ﷺ خشية أن ينزل عليهم العذاب، وناشده بالرحم أن يكف عن ذلك.. فلما رجع إلى قومه سألوه فقال: والله لقد سمعت قولاً ما

[(١)] سورة فصلت الآيات ١– ١٣.

سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالكهانة، ولا بالسحر يا معشر قريش! خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه.. فوالله ليكوننَّ لكلامه الذي سمعت نبأ.. فإن نصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فعزه عزكم.. فقالوا: لقد سحرك مُحَمَّد.!! فقال: هذا رأيي".

وسمع الوليد بن المغيرة– وكان من عظماء قريش وأكبر المعاندين للدعوة– القرآن مرة فخشع قلبه وأخذ بلبه وقال لقومه: "والله لقد سمعت من مُحَمَّد آنفاً كلاماً، ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه".

هذا هو القرآن الكريم نعمة الله الكبرى على خلقه.. ونوره المبين الذي يشع على الأجيال جيلاً بعد جيل، يمدهم بأمداده ويفيض عليهم بنفحاته ومعارفه.

لا تنزل بأحد نازلة إلى يوم القيامة إلا وفيه دليل الهدى إليها– كما قال الإمام الشافعي رضى الله عنه.

وقال ابن القيم: دلائله قطعية لا تعترضها الشبهات، ولا تتوارد عليها الاحتمالات، ولا ينصرف القلب عنها بعد معرفتها أبداً.

فيه بيان أسمائه عز وجل وصفاته الجلالية والجمالية.

وفيه التذكير بآلائه ونعمه الظاهرة والباطنة، والتذكير بأيامه عز وجل في خلقه.. وهو بيان مجازاته تعالى للمطيعين والعصاة في الدنيا، بتقليب النعم والنقم، حتى تتمثل في صدورهم الرغبة في الطاعات، والخوف من المعاصي.

فيه آداب العبودية: من خشية الله تعالى، ومراقبته، والخوف منه، ووجوب محبته، والتوكل عليه، والتفويض له، والتسليم لأحكامه تعالى.

فيه بيان ما يتقى من وساوس الشيطان ومكايده، وبيان مداخله إلى القلوب، وما يغرّ به الإنسان من التسويف وطول الأمل.

فيه التحذير من الدنيا، والاغترار بزهرتها، والركون إلى شهواتها، وما ينبغي للعاقل من الزهد فيها، والتقلل منها، والإنابة إلى الآخرة.. دار الخلود، والاستعداد لها بالإيمان والعمل الصالح.

فيه رسم الخطة للدعوة إلى الله تعالى. وأنها تكون بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن.. لتكون أثمر وأنجع في القلوب.

افيه التنبيه على أن الناس من أصل واحد.. أبوهم آدم.. وأمهم حواء. ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى. [يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ[(١)]].

فيه بيان خلق الإنسان.. وبيان أطواره من أول نشأته إلى موته، وكيفية الموت، وقبض الروح، وما يفعل بها بعد صعودها إلى السماء.. وفتح الباب للمؤمنة.. وإيصاده عن الكافرة.. ومقر الأرواح، وعذاب القبر، والسؤال فيه.

فيه أحوال البعث، من النفخات الثلاث: نفخة الفزع، والصعق، والقيام. فيه عجائب المخلوات.. وملكوت السموات والأرض.

فيه الأدب.. والحكمة.. والأخلاق.. والعبادة.. والتشريع الذي لا يستغنى عنه. ولا يسد مسده غيره.

فيه بيان الأشياء التي تصرف الناس عن اتباع الحق والهدى: من الكبر وحب الرياسة، وإلف الباطل واعتياده..

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٣

وفيه بيان الشهوات التي تخدع النفوس، وتشغل القلوب عن الله تعالى: [زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ[1]].. [قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ[2]].

فيه أن من لم يتأدب مع الله تعالى ويحافظ على حدوده وأوامره يخسر ويندم حيث لا ينفع الندم ولا يفيد: [أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ[3]] [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ[4]].

وفيه بيان أن الله تعالى لا يهدي إلا من ينيب إليه ويجاهد في سبيله.. [اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ(٥)]. [وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا[6]].

وأنه لا يتعظ ولا يتذكر إلا من له قلب حيّ وفكر واعٍ [إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ[7]].

---

(١) سورة آل عمران. الآية: ١٤

(٢) سورة التوبة. الآية: ٢٤

(٣) سورة الزمر. الآية: ٥٦

(٤) سورة المنافقون. الآية: ٩

(٥) سورة الشورى. الآية: ١٣

(٦) سورة العنكبوت. الآية: ٦٩

(٧) سورة ق. الآية ٢٧

وبيان أن معرفة الحق والهدى لا تكفي للنجاة.. بل لابد من العمل والتقوى.

في القرآن الكريم هذا.. وأكثر منه.. فيه من الفوائد والأسرار والحكم والمعارف ما لا يحيط به علم أحد.. ولكن كل من يغترف منه على قدر نور بصيرته وعقله.

قال جعفر الصادق ﷺ: "والله لقد تجلى الله تعالى لعباده في كلامه ولكنهم لا يبصرون" أي ظهر بأسمائه وصفاته وتجلياته ظهوراً تدركه القلوب إذا كانت حية مبصرة.

واعلم أن القرآن أكبر معجزات نبينا ﷺ.. وقد أكرمنا الله تعالى بوجوده محفوظاً متواتراً.. تحفظه الألوف المؤلفة في كل عصر، والمصاحف التي تحويه في الدنيا تفوق الحصر.. والخير كله فيه تلاوة وفهماً وعملاً.

لا يغيض معينه ولا تتناهى أسراره.. ولذلك قال ابن مسعود ﷺ: نَوِّرُوا القرآن- أي اعرفوا أسراره وأنواره- والتمسوا غرائبه ففيه علم الأولين والآخرين.

وعنه أيضاً: ما من آية في القرآن إلا وقد عمل بها قوم أو سيعمل بها آخرون.

يعني: أنه ديوان العلوم، وكتاب الأجيال في كل زمان ومكان. لم يجتمع في كتاب قط من العلوم المختلفة مثل ما اجتمع فيه.

ولكــن تأخــذ الألبــاب منــه على قــدر القــرائح والفهــوم

وما من كلمة فيه لو تأملها العاقل إلا وهي شاهدة بأنه كلام رب

العالمين وتنزيل الحكيم العليم، لا تبلغه قوة البشر، ولا يمكن معارضته ومحاكاته.

ومن تدبير الله تعالى العظيم لهذا الكتاب: أن ألهم العرب قبل بعثته ﷺ الاشتغال بالشعر، والمباراة في الخطب، والتفنن في البلاغة حتى وجد فيهم من بلغوا مبلغ التخصص في هذا الباب، وكان إليهم المرجع فيه، لأنه عز وجل علم أنه سيجعل هذا القرآن معجزة لنبيه ﷺ فهيأ العرب لذلك، حتى يمكنهم إدراك بلاغته، ويعرفوا أنه خارج عن طوقهم وقدرتهم. وإنما وقع التصريح بتحدي العرب والقطع بأن أحداً لا يمكنه معارضته والإتيان بمثله لئلا يدعي مدعي– وإن كان مثل هذا الإدعاء بعيداً غاية البعد– أنه قد اتفق اتفاقاً عدم معارضة القرآن من العرب. ولو أنهم طولبوا بالمعارضة لما عجزوا. أو لئلا يقال: قد عجز العرب ولكن عجزهم لا يلزم منه عجز غيرهم. فهذا هو التحدي القاطع وهو باقٍ وعام إلى يوم القيامة لجميع العصور والقرون.. ومن حِكَم هذا التحدي أيضاً لفت الأنظار وحث العقول على البحث في وجوه إعجازه وتعرف طرقه.

فالقرآن الكريم منار الإسلام وحجته الباهرة، وديوانه المحيط بكل شيء قال ابن العربي: إن الشخص إذا كان مؤمناً بالقرآن قاطعاً بأنه كلام الله تعالى فالواجب عليه أن يأخذ عقيدته منه، من غير تأويل ولا عدول إلى أدلة العقول مجردة عن الشرع، فإن القرآن دليل قطعي سمعي عقلي، فقد أثبت سبحانه وتعالى فيه أنه منزه عن أن يشبهه شيء من المخلوقات، أو يشبه هو شيئاً منها بقوله تعالى: [لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ[1]] وبقوله تعالى: [سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ[2]] ونحوهما من الآيات..

وأثبت رؤيته تعالى للمؤمنين في الآخرة بقوله تعالى: [وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ.

---

(1) سورة الشورى الآية: ١١٠

(2) سورة الصافات الآية: ١٨٠

إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ][1]، وبمفهوم قوله تعالى في الكفار: [كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ][2]، فدل على أن المؤمنين يرونه ولا يحجبون عنه. وأثبت نفي الإحاطة به بقوله تعالى: [لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ][3]، وبقوله تعالى: [أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ][4]، وأثبت كونه تعالى قادراً بقوله تعالى: [وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ][5]، وأثبت كونه عالماً بقوله تعالى: [وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا][6].. وأثبت كونه مريداً للخير والشر بقوله تعالى: [فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ][7]، وبقوله: [فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ][8]، وأثبت كونه تعالى سميعاً لخلقه بقوله تعالى: [قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا[9]]، وأثبت كونه تعالى بصيراً بأعمال عباده بقوله تعالى: [وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ][10]، وبقوله: [أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى][11] وأثبت كونه تعالى متكلماً بقوله تعالى: [وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا][12]. وأثبت كونه حياً بقوله تعالى: [اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ][13] وأثبت رسالة الرسل بقوله تعالى: [وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى][14]، وأثبت رسالة محمد ﷺ بقوله تعالى: [مُحَمَّدٌ

---

[1] سورة القيامة الآية: ٢٢، ٢٣

[2] سورة المطففين الآية: ١٥

[3] سورة الأنعام الآية: ١٠٣

[4] سورة فصلت الآية: ٥٤

[5] سورة الملك الآية: ١

[6] سورة الطلاق الآية: ١٢

[7] سورة البروج الآية: ١٦

[8] سورة إبراهيم الآية: ٤

[9] سورة المجادلة الآية: ١

[10] سورة الحديد الآية: ٤

[11] سورة العلق الآية: ١٤

[12] سورة النساء الآية: ١٦٤

[13] سورة البقرة الآية: ٢٥٥

[14] سورة يوسف الآية: ١٠٩

رَسُولُ اللَّهِ][1]، وأثبت أنه ﷺ آخر الأنبياء بعثاً بقوله تعالى: [وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ[2]]. وأثبت أن كا ما سواه خلقه بقوله تعالى: [اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ][3] وأثبت الجن بقوله تعالى: [وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ][4]، وأثبت أن الجن يدخلون الجنة بقوله تعالى: [لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ][5]، وأثبت حشر الأجساد بقوله تعالى: [إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ][6]، إلى أمثال ذلك مما هو مذكور في كتب العقائد: كوجوب الإيمان بالقضا والقدر، والميزان، والحوض، والصراط، والحساب، وتطاير الصحف، وخلق الجنة والنار، قال الله تبارك وتعالى: [مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ][7]، وأثبت المعجزة لنبينا مُحَمَّد ﷺ بقوله تعالى: [قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ][8]. فإن القرآن كله معجزته ﷺ . أهـ.

وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: "أوتيت القرآن ومثله معه"، وفي رواية: "أوتيت القرآن ومثليه معه.." فأنظر كم حوى ﷺ في قلبه من المعارف والعلوم.

السنة النبوية وأثرها في التشريع

للسنة النبوية أثر كبير في التشريع الإسلامي، فإنها علاوة على كونها في ذاتها أصلاً مستقلاً يرجع إليه في معرفة الأحكام الشرعية، ويستدل به على الخطابات الإلهية. قد كشفت لنا عن مضمون الكتاب العزيز، وفتحت لنا كنوز أسراره، وعبرت عن المقصود منه، تحقيقاً لقوله تعالى: [وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ

---

[1] سورة الفتح الآية: ٢٩
[2] سورة الأحزاب الآية: ٤٠
[3] سورة الأنعام الآية: ١٠٢
[4] سورة الذاريات الآية: ٥٦
[5] سورة الرحمن الآية: ٥٦
[6] سورة العاديات الآية: ٩
[7] سورة الأنعام الآية: ٣٨
[8] سورة البقرة الآية: ٢٣

لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ[1]]. فبينت لنا المراد من ظاهره وباطنه، وخاصة وعامة، ومفصلة ومجملة، ومحكمه ومنسوخه، وغير ذلك مما تضمنته آياته، واحتوت عليه ثناياه..

ولقد كان من الضروري أن ينزل القرآن الكريم مشتملاً على هذه الأنواع المذكورة لأنه دستور الأمم كلها، وكتاب الأجيال قاطبة إلى يوم القيامة فلو أنه اشتمل على كل شيء بالتفصيل، ونص على جميع الوقائع الجزئية وبيان أحكامها، لما كان من المستطاع حفظه، واستظهاره، والتعبد بتلاوته، اللهم إلا لنبي مرسل، أو ملك مقرب؛ فلا يكون حاله كما قال تعالى: [وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ[2]].

فكان من الحكمة والرحمة بالأمة أن ينزله الله تعالى هكذا في معظم آياته، أصولاً عامة، وقواعد كلية، مشتملة على التعريف بمصالح الدارين، والحث على اجتلابها، والتعريف بمفاسدهما والحض على اجتنابها: وما أقام له ترجماناً يعرب عنه ويبين محتوياته إلا ذلك النبي المعصوم المنزه عن نزغات الجنان وفلتات اللسان صلوات الله وسلامه عليه [وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى. مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى. وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى[3]].

وقد يتوهم متوهم أن في هذا الذي قررناه ما يتنافى مع قول الحق جل وعلا: [مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ][4]، [وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ][5].

---

[1] سورة النحل الآية ٤٤

[2] سورة القمر الآية ٧

[3] سورة النجم الآيات ١– ٢٥

[4] سورة الأنعام الآية ٣٨

[5] سورة النحل الآية ٨٩

والواقع أنه لا منافاة لما ذكره العلماء في هاتين الآيتين الكريمتين من أن المراد بهما، كون القرآن أصلاً لبيان كل شيء بنفسه أو ببيان النبي صلى الله عليه وسلم.

وعن عمران بن حصين ﷺ أنه قال لرجل إنك امرؤ أحمق، أتجد في كتاب الله الظهر أربعا، لا يجهر فيها بالقراءة؟ ثم عدد إليه الصلاة والزكاة، ثم قال: أتجد هذا في كتاب الله مفسراً؟ إن كتاب الله أبهم هذا، وإن السنة تفسره.

وروى الأوزاعي عن حسان بن عطية قال: كان الوحي– أي القرآن– ينزل على رسول الله ﷺ، ويحضره جبريل بالسنة التي تفسر ذلك، ومن ثم قال الأوزاعي: الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب. وعن الإمام أحمد ﷺ: ما أجسر على هذا الكلام أن أقوله، ولكن أقول: السُّنة تفسر الكتاب ونبينه.

وذلك أن القرآن– كما سبق– فيه المجمل والمنسوخ، والعام المراد به الخصوص ومنه ما لايمكن فهمه إلا بالوقوف على أسباب نزوله.. وكل ذلك إنما يؤخذ عن سنة النبي ﷺ ودلالته..

فالحاصل كما قال الحافظ السيوطي: أن معنى احتياج القرآن إلى السنة أنها مبينة له، ومفصلة لمجملاته، لأن فيه لو جازته كنوزاً تحتاج إلى من يعرف خفايا خباياها فيبرزها، وذلك هو المنزل عليه ﷺ. وعن علي ﷺ وكرم الله وجهه أنه مرَّ على قاص يقُصُّ فقال: أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ فقال: لا. فقال عليّ: هلكت وأهلكت!!

قال الإمام الشافعي ﷺ: ولا يستدل على الناسخ والمنسوخ في القرآن إلا بخبر عن رسول الله ﷺ، أو بوقت يدل على أن أحدهما بعد الآخر فيعلم أن

الآخر هو الناسخ، أو يقول من سمع الحديث، أو الإجماع..

وعن أيوب السختياني أنه قال: إذا حدثت الرجل بسنة فقال دعنا من هذا وانبئنا عن القرآن، فأعلم أنه ضالّ.

وعنه أيضاً قال: قال رجل عند مطرف بن عبدالله: لا تحدثنا إلا بما في القرآن فقال مطرف: إنّا والله ما نريد بالقرآن بديلاً، ولكنا نريد من هو أعلم بالقرآن منا– كذا في مفتاح الجنة.

قلت: وبمثل ما قاله مطرف بن عبدالله رحمه الله يرد على أولئك القاصرين المقصرين من أبناء جيلنا الحاضر الذين عوَّلوا على ظواهر الكتاب والسنة، وأعرضوا عما قاله الآئمة فيهما، واستنبطوه من أحكامهما وقد انتحلوا لأنفسهم رتبة الاجتهاد ظلماً وعدواناً. وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الجهل المطبق وما تهوى أنفسهم الخبيثة. وإذا نصحت إلى الواحد منهم بالوقوف عند حده، والرجوع لأقوال الآئمة والعمل بمذاهبهم المقررة قال لك: كما قال صاحب مطرف. لا تحدثونا إلا بما في الكتاب والسُّنة، ولا نعمل إلا بهما.

والله يعلم أنا لا نريد بالكتاب والسنة بديلاً. ولكنا نريد من هو أعلم بهما منا، وهم الآئمة المجتهدون رضي الله عهم وعنا بهم أجمعين.

وأشد بلية من هؤلاء وسخفاً أولئك الذين تهجموا على كثير من الأحاديث النبوية الصحيحة، الواردة في كتب السنة المعتبرة التي تلقتها الأمة بالقبول لأنها وردت بما لم يرد في القرآن، على حسب فهمهم وعقولهم أو لمجرد أنها خالفت بعض النظريات الحديثة عند الأوروبيين. وهذه جرأة شنيعة، بل حماقة مزرية جرَّهم إليها تقليدهم الأعمى لأولئك القوم وتقديسهم لنظرياتهم التي لم تثبت صحتها حتى عند مخترعيها أنفسهم، الذين ماتوا وهم على غير يقين منها.

ولنتحف القارئ بشيء من بيان السُّنة للكتاب على سبيل التمثيل فنقول:

قال الله تعالى: [فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ[1]].

فلولا بيان النبي ﷺ ما كنا نفهم حقيقة هذه الآية، ولا بيان المراد من عدد الصلوات في اليوم والليلة، ولا عدد الركعات وتحديد الأوقات بالنسبة للصلاة، ولا كنا نفهم القدر الواجب في الزكاة ولا الأنواع التي تجب فيها من الذهب والفضة والأنعام والحرث.

وقال تعالى: [وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا[2]].

فلولا أن النبي ﷺ بين لنا موضع القطع المراد، والقدر الذي يترتب عليه القطع المذكور ما كنا نعرف ذلك بحال..

وهذا مثال لبيان السُّنة للمجمل الوارد في القرآن..

وأما تخصيص العام فكقوله تعالى: [الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ[3]]. خص بحديث "ماعز" المشهور الدال على أن الزاني إذا كان محصناً يرجم بالحجارة حتى يموت.. وكقوله تعالى: [وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ[4]] خص بحديث أبي هريرة "أن المرأة لا تنكح على عمتها وخالتها".. وكقوله تعالى: [يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ[5]]. خص برواية أبي هريرة ﷺ أيضاً "أنه لا يرث القاتل، والعبد، ولا أهل ملتين". وبرواية أبي بكر الصديق ﷺ حينما طلبت منه السيدة فاطمة الزهراء ميراثها من النبي

(1) سورة الحج الآية: ٨٧

(2) سورة المائدة الآية: ٣٨

(3) سورة النور الآية: ٢

(4) سورة النساء الآية: ٣٢

(5) سورة النساء الآية: ١١

ﷺ مستندة لعموم هذه الآية الكريمة "نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة".

وأما بيان المنسوخ من القرآن بالسُّنة فمثل قوله تعالى: [كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ[1]]. نسخ حكمه بقوله عليه الصلاة والسلام "لا وصية لوارث". وليس لقائل أن يقول إن نسخ القرآن بالسُّنة لا يجوز لقوله تعالى: [قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ[2]] والنسخ تبديل.. لأنا نقول: إنه وإن كان تبديلاً إلا أنه ليس من تلقاء نفسه. وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

ويدل للجواز قوله تعالى: [وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ[3]] وليس بيان السُّنة النبوية للقرآن قاصراً على الأحكام التكليفية، فقد بيَّنت السنة القرآن في غيرها أيضاً. كما فسر النبي ﷺ قوله تعالى: [وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ[4]]. قال: دخلوا يزحفون على أوراكهم.. وكما فسر قوله تعالى: [فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ[5]] قال: قالوا حبة في شعرة.

وقد دل الإستقراء أيضاً على أن في السنة أشياء كثيرة لم ينص عليها في القرآن الكريم كتحريم أكل الحمر الأهلية، وكل ذي ناب، وكالعقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر، وما إلى ذلك مما تكفلت به كتب الفروع الفقهية..

---

(1) سورة البقرة الآية: ١٨٠

(2) سورة يونس الآية: ١٥

(3) سورة النحل الآية: ٥٩

(4) سورة البقرة الآية: ٥٨

(5) سورة البقرة الآية: ٥٩

وكما خصصت السنة في القرآن ونسخت من أحكامه، وبينت مجمله كذلك خصص بعضها بعضاً، ونسخ بعضها بالبعض.

أما التخصيص فكما في قوله ﷺ: "فيما سقت السماء العشر" وهو عام في النصاب وما دونه.. وقد خص بقوله عليه الصلاة والسلام: "لا زكاة فيما دون خمسة أوسق".

وأما النسخ فكما في قوله ﷺ في حديث مسلم قيل له الرجل يعجل عن امرأته ولم يمن ماذا يجب عليه؟ فقال: (الماء من الماء) نسخ بحديث الصحيحين (إذا جلس بين شعبها الأربع ثم جهدها فقد وجب الغسل). زاد مسلم في روايته– "وإن لم يُنزل".

وكذلك قد ثبت نسخ السنة بالكتاب. كما نسخ التوجه إلى بيت المقدس الثابت بالسنة، بقوله تعالى: [فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ[1]] إلى غير ذلك مما هو مفصل في محله.. ولذلك قال بعض العلماء: ترك الكتاب موضعاً للسُّنة، وتركت السُّنة موضعاً للكتاب.

هذا والأكثرون– خلافاً لطائفة قليلة شاذة– على أن النبي ﷺ كما كان مبيناً بقوله الشريف كان مبيناً بفعله أيضاً. بدليل ما روي عنه عليه الصلاة والسلام من نحو قوله في الصلاة: "صلوا كما رأيتموني أصلي"، وفي الحج "خذوا عني مناسككم".

وأيضاً فإن المعلوم أن الإتيان بأفعال الصلاة والحج مثلاً لكونها مشاهدة أدل على معرفة تفصيلها من الإخبار عنها بالقول. إذ ليس الخبر كالمعاينة

ولهذا كانت مشاهدة (زيد في الدار) أدل على معرفة كونه فيها من الإخبار

---

(1) سورة البقرة الآية: ١٤٤

عنه بذلك..، وإذا كان القول بياناً مع قصوره في الدلالة عن الفعل المشاهد، فكون الفعل بياناً أولي.

واعلم أن حجية السُنة النبوية، وكونها طريقاً لمعرفة الأحكام الشرعية من ضروريات هذا الدين، ومن القضايا المسلمة عند جميع المسلمين، ولا يشك في ذلك إلا جهول متعصب، أو ملحد مكذب، كيف لا. واعتقاد ذلك من لوازم الإيمان به ﷺ والإذعان لما جاء به من كتاب الله تعالى كما هو واضح غاية الوضوح.. قال الله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ[1]]. أي عن الرسول، وقال تعالى: [قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ(٢)]. وقال تعالى: [فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ[3]]. الآية وقال تعالى: [فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[4]].

وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أنه قال إن رسول الله ﷺ قال: "من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله".

وعن العرباض بن سارية ﷺ قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، قال فيها: "فعليكم بسنتي وسُنة الخلفاء الراشدين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ".

وروى أبو داود والترمذي وابن ماجة عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: "ألا، لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته، يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو

---

[1] سورة الأنفال الآية: ٢٠

[2] سورة آل عمران الآية: ٣١

[3] سورة النساء الآية: ٦٥

[4] سورة النور الآية: ٦٣

نهيت عنه، فيقول: لا أدري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه".

وفي حديث رواه أبو الشيخ وأبو نعيم والديلمي: "فمن استمسك بحديثي وفهمه وحفظه جاء مع القرآن ومن تهاون بالقرآن وحديثي فقد خسر الدنيا والآخرة أمرت أمتي أن يأخذوا بقولي ويطيعوا أمري ويتبعوا سنتي فمن رضي بقولي فقد رضي بالقرآن". قال الله تعالى: [وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا(1)].

وعن رجل من آل خالد بن أسيد– بفتح الألف وكسر السين أو بضم الألف وفتح السين– أنه سأل عبدالله بن عمر رضي الله عنهما فقال:

يا أبا عبدالرحمن. إنا نجد صلاة الخوف وصلاة الحضر في القرآن ولا نجد صلاة السفر. فقال ابن عمر رضي الله عنهما: يا ابن أخي إن الله بعث إلينا محمَّداً عليه الصلاة والسلام ولا نعلم شيئاً وإنما نفعل كما رأيناه يفعل.

وروي أن امرأة من أسد أتت عبدالله بن مسعود فقالت له: بلغني أنك لعنت كيت وكيت والواشمة والمستوشمة وإني قرأت ما بين اللوحين فلم أجد الذي تقول. فقال لها عبدالله– أما قرأت: [وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ(2)]. قالت: بلى. قال فهو ذاك".

وعن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى أنه قال: سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر– يعني الخلفاء الراشدين– بعده سننا الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستعمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها، والنظر في رأي من خالفها. من اقتدى بها مهتدي، ومن استنصر بها

---

(1) سورة الحشر الآية: ٧

(2) سورة الحشر الآية: ٧

منصور، ومن خالفها واتبع بها غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً..

ورؤى عبدالله بن عمر رضي الله عنهما يدير ناقته أي يطيفها في مكان. فسئل عن ذلك فقال: لا أدري إلا أني رأيت رسول الله ﷺ فعله ففعلته

فقد بان لك اتفاق كلمة المسلمين على اعتبار السنة النبوية، وأنها من حجج الدين القاطعة، وأدلته الساطعة. بل لم يثبت معظم الأحكام الشرعية إلا بها..

وأما الاقتصار على القرآن وحده فإنما هو رأي قوم لا خلاق لهم، خارجين على السّنة، قد عولوا على أن الكتاب فيه تبيان كل شيء، فأطرحوا أحكام السُّنة، فأداهم ذلك إلى الانخلاع من الجماعة، وتأويل القرآن على غير ما أنزل الله، كما ورد عن النبي ﷺ أنه قال: "أكثر ما أتخوف على أمتي من بعدي رجل يتأول القرآن، يضعه على غير مواضعه"، أخرجه الطبراني في الأوسط عن عمر ابن الخطاب ﷺ.. وأخرج البيهقي عن جندب ابن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: "من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ" قال أبو العلاء:

وكم من فقيه خابط في ضلالة　　　وحجته فيها الكتاب المنزل

وأما حديث- "ما آتاكم عني فأعرضوه على كتاب الله فإن وافق كتاب الله فأنا قلته، وإن خالف كتاب الله فلم أقله أنا، وكيف أخالف كتاب الله وبه هداني الله"- فقد قال: عبدالرحمن بن مهدي- كما في الموافقات- إنه وضعه الزنادقة والخوارج، وهذه الألفاظ لا تصح عند أهل العلم بصحيح النقل وسقيمه. وقد عارض هذا الحديث قوم فقالوا: نحن نعرضه على كتاب الله قبل كل شيء، وقد عرضناه على كتاب الله فوجدناه يخالفه. لأنا لم نجد في كتاب الله أنه لا يقبل من حديث رسول الله ﷺ إلا ما وافق كتاب الله. بل وجدنا كتاب

الله يطلق التأسِّي به، والأمر بطاعته، والتحذير عن مخالفته جملة على كل حال، وعكس بعضهم فقال: قد عرضاه على كتاب الله فوجدناه لا يخالفه لأن الله تعالى يقول: [وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ[1]]. وعلى كل حال فهذا الحديث مختلق مصنوع.

---

[1] سورة الحشر الآية: ٧

التصـوف

اعلم نَوَّر الله تعالى قلبي وقلبك، وأكمل فيه حبي وحبك أن التصوف نتيجة العقل وثمرة العلم، وفائدة العمر ولباب الدين، وروح الإسلام، لأنه الاشتغال بعبادة الله تعالى، والتعلق بحضرته العليَّة، وهو الغاية الكبرى من وجود الأكوان، وخلق الإنسن والجانّ. والمقصود في الحقيقة من بعثته صلى الله عليه وسلم، وبعثة سائر الرسل عليهم الصلاة والسلام.

قال الله تعالى: [وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ[1]].

وقال عز وجل: [وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ[2]].

لا يتقاعد عنه إلا ضعيف الإرادة قليل الهمة.. سئل ذو النون المصري عن السفلة من الناس. فقال: هو الذي لا يعرف الطريق ولا يتعرفه، العلم بدونه وسيلة بلا غاية، كما أن الخوض فيه قبل العلم شر جناية.

ولهذا كان السرى السقطى يقول للجنيد رضي الله تعالى عنهما: جعلك الله صاحب حديث صوفياً ولا جعلك صوفياً صاحب حديث.. إشارة إلى أن من تصوف بعد العلم بالله تعالى وبالأحكام الشرعية العملية فقد أفلح وأتى البيوت من أبوابها؛ ومن تصوف قبل تحصيل العلم فقد خاطر بنفسه، وتنكب طريق السداد والفلاح، وفي حديث معاذ رضي الله تعالى عنه الدال على شرف العلم وطلب تعلمه، قال ﷺ: "والعلم إمام العمل والعمل تابعه"..

---

(1) سورة الذاريات الآية: ٥٧

(2) سورة الأنبياء الآية: ٢٥

ومن تراجم البخاري في صحيحه: العلم قبل العمل لقوله تعالى: [فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ[1]]. فبدأ بالعلم قبل العمل.

ومن المأثور عن بعض السلف ونسبه الشيخ زروق في قواعده للإمام مالك رضي الله تعالى عنه: "من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق".

ما هو التصوف؟

أهل كل علم هم أدرى الناس به، وأصحاب الحق الطبيعي في بيان ماهيته وتصوير حقيقته.. وقد قال الإمام مالك: "لكل علم رجال، وإنما يؤخذ كل علم عن أهله".

فلننظر إذاً إلى كلام الصوفية بيان حقيقة التصوف، ولنضرب صحفاً عن كل ما لا يوافقه من كلام غيرهم، سواء كان قائله غربياً أم شرقياً.

وبمراجعة كلام الصوفية في هذا المقام، نجد أن للتصوف عندهم **إطلاقين**:

الإطلاق الأول: باعتبار كونه علماً من العلوم، ويحد على هذا بأنه: علم يعرف به أحوال النفوس وكيفية رياضتها، وطرق علاجها، ومنشأ أمراضها، وتطوراتها..

وهو معنى قول العارف الدردير رضي الله تعالى عنه في شرح "خريدته" إنه علم بأصول يعرف به صلاح القلب وسائر الحواس.

وهذا العلم في الحقيقة، هو الحكمة التي يقول الله تعالى فيها: [وَمَنْ يُؤْتَ

---

[1] سورة محمد عليه الصلاة والسلام الآية: ١٩

الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا[1]].. وهو الفقه في الدين الذي يقول فيه رسول الله ﷺ كما في الصحيح "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين". وكلما أخلص العبد في عبادة ربه، ومجاهدة نفسه تفجرت ينابيع هذا العلم من قلبه.

و**الإطلاق الثاني** للتصوف باعتبار كونه عملاً ورياضة للنفس، ويحد على هذا- كما في شرح الخريدة- بأنه: الأخذ بالأحوط من المأمورات، واجتناب المنهيات والاقتصار على الضروري من المباحات.

وقيل: هو الخروج عن كل خلق دني، والدخول في كل خلق سني.

وقيل: الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهراً أو باطناً.

وقيل: صفاء المعاملة مع الله تعالى:

وقيل: اشتغال العبد بما هو أولى في الوقت.

وقال الغزالي: هو- تجريد القلب لله، واحتقار ما سواه. أي اعتقاد أنه لا ينفع ولا يضر.

وقيل: كمال الإنسان بالإسلام والإيمان والإحسان.

والأقوال المأثورة في التصوف كثيرة جداً. حتى قيل: إنها تبلغ زهاء الألفين، ومرجعها كلها إلى الإخلاص في عبادة الله، والإستعانة به دون سواه..

وهو المذكور في مفتتح الفرقان المنصوص عليه في أم القرآن: [إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ[2]].

فإن جميع ما ذكره الصوفية وقرروه، وندبوا إليه أنفسهم وأتباعهم يدور

---

(1) سورة البقرة الآية: ٢٦٩

(2) سورة الفاتحة الآية: ٥

على هذين الأصلين، ويتفرع منهما.

وقال شيخنا العارف الدومي رضي الله تعالى عنه: الطريق هو العمل بالعلم.. وقال مرة: هو الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين.

وقال العارف الدرديري رضي الله تعالى عنه في "تحفة الإخوان" إن طريق القوم هو تقوى الله تعالى التي أمرنا بها في كتابه العزيز على لسان نبيه ﷺ، ورتب عليها سعادة الدارين، وحصول المعارف والأسرار الإلهية، والتكفل بالرزق من غير مشقة، وحكم سبحانه أن كل من تمسك بها أكثر من غيره كان عند الله أكرم.

قال الله تعالى: [وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ(1)].

وقال: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ(2)].

وقال: [وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ(3)].

وقال: [إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ(4)]. وانظر إلى قوله تعالى: [أَتْقَاكُمْ]، ولم يقل أعلمكم، ولا أنسبكم، ولا أصحبكم، ولا أجمعكم. أي أكثركم صحبة للأخيار وجمعاً للمال.

(1) سورة البقرة الآية: ٢٨٢

(2) سورة الحديد الآية: ٢٩

(3) سورة الطلاق الآية: ٣٢

(4) سورة الحجرات الآية: ١٣

طريقة قويمة

فهل يرتاب منصف في أن هذه الطريقة الصوفية طريقة قويمة، وخطة راشدة حكيمة.

ولله در الإمام ابن السبكي، حيث قال في خاتمة كتابه (جمع الجوامع) الذي طبقت شهرته الآفاق: ونعتقد أن طريق الجنيد وصحبه طريق مقوم.

إي والله طريق مقوم. موزون بميزان العقل والشرع، يرمي إلى تخليص الأعمال من الحظوظ والأغراض الفاسدة، ويهدف إلى تكييف الحياة الإنسانية تكييفاً دينياً صالحاً. سداه ولحمته تقوى الله تعالى ومراقبته وذكره باللسان والجنان. وغايته حضور القلب معه عز وجل في كل حال.. وليس من شرطه ولا المقصود منه إماتة الصفات البشرية وقطع حظوظ النفس بالكلية. كما توهم بعض القاصرين حتى زعموا أن التصوف مذهب خيالي لا يمكن تطبيقه عملياً، ولا يتأتى تحقيقه واقعياً.. كلا.. بل التصوف مذهب واقعي معقول.. لا يصادم الفطرة الإنسانية، ولا يتحدى الطبيعة البشرية، ولا يتنافى مع سنن الحياة وقواعد الاجتماع، ولا يشترط فيه، ولا يقصد منه إلا التحرر من سلطان النفس الأمارة بالسوء، والتخلص من طغيان الشهوة والغضب. وهذه هي الحرية الحقيقية، والكمال الإنساني، المحمود عقلاً وشرعاً.

وهذا معنى ما قاله أبو الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه: ليس التصوف بالرهبانية، ولا بأكل النخالة والشعير، ولكن بالصبر على الأوامر واليقين في الهداية. كما قال تعالى: [وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ[١]].. ومعنى قوله أيضاً: التصوف تدريب النفس على العبودية،

---

[١] سورة السجدة الآية: ٢٤

وردها لأحكام الربوبية.

وقال ابن عطاء الله السكندري في (الحكم). لا يلزم من وجود الخصوصية– الولاية– محو صفات البشرية.

وسئل أبو مُحَّد سهل بن عبدالله التستري وهو من كبار مشايخ الصوفية عن الرجل يتوب من الشيء ويتركه ثم يخطر ذلك الشيء بقلبه أو يراه أو يسمع به فيجد حلاوته.! فقال: الحلاوة طبع البشرية، ولابد من الطبع وليس له حيلة إلا أن يرفع قلبه إلى مولاه بالشكوى أن ينسيه ذلك، ويشغله بغيره من ذكره وطاعته.. قال: وإن غفل عن الإنكار طرفة عين فإني أخاف عليه أن لا يسلم، وتعمل الحلاوة في قلبه، ولكن مع وجود الحلاوة يلزم قلبه الإنكار ويحزن فإنه لا يضره.. فتأمل قوله ﷺ الحلاوة طبع البشرية ولابد من الطبع.

ومن النفائس قول بعض المحققين: الولي يكون محفوظاً عن النظر لنفسه فلا يدخله عجب، ويكون مسلوباً من الخلق– يعني من النظر إليهم بحظ– فلا يفتنونه ويكون محفوظاً من آفات البشرية وإن كان طبع البشرية قائماً معه باقياً فيه فلا يستحلي حظاً من حظوظ البشرية إستحلاء يفتنه عن دينه، واستحلاء الطبع قائم معه باق.

فما أحكم الصوفية، وما أعرفهم بأحوال النفوس ودخائلها.

هـمُ الرجـال وعيـب أن يقـال لمـن ... لم يتصـف بمعـاني وصـفهم رجـل

متى نشأ التصوف؟

أما التصوف العملي الذي هو عبارة عن مجاهدة النفس، والاشتغال بالعمل الصالح، والتعلق بالله عز وجل مع الزهد في الدنيا، وعدم الاعتزاز بمظاهرها الخلابة فلا خفاء في أنه طلع مع الإسلام في أفق واحد، ونشأ معه في

الوقت الذي نشأ فيه، يدلك على هذا ما ثبت مستفيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، من اجتهادهم في عبادة الله تعالى، وتفانيهم في محبته، وإنابتهم إلى دار الخلود، ومجافاتهم عن دار الغرور. مع ما كانوا عليه من الأحوال الشريفة، والأخلاق الفاضلة، والآداب الكريمة.

وها كم الأدلة القاطعة الدالة على ذلك، قال الله تعالى: [وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ(1)].

وقال عز شأنه: [رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ(2)].

وقال تعالى: [مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ(3)] إلى غير ذلك من الآيات.

وأخرج الشيخان عن عائشة ﵂ أن النبي ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقلت: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟!، فقال: "أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً". وأخرجا أيضاً عن أبي هريرة ﵁ قال: "ما شبع آل محمد ﷺ من طعام ثلاثة أيام تباعاً حتى قبض."

وقوله ﵁: حتى قبض، فيه رد على من يزعم أن هذا وقع منه ﷺ للضرورة وقلة الأقوات، إذ لا يخفي أنه في أخريات حياته عليه الصلاة والسلام

(1) سورة الكهف الآية: ٢٨

(2) سورة النور الآية: ٣٧

(3) سورة الفتح الآية: ٢٩

قد فتحت عليه الفتوح، وكثرت لديه الغنائم.

وأخرج أحمد وابن حبان في صحيحه. عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ دخل عليه عمر ﷺ، وهو على حصير قد أثر في جنبه فقال يا رسول الله: لو اتخذت فراشاً أوثر– ألين– من هذا فقال: "مالي وللدنيا، ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب، سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة، ثم راح وتركها".

وعن القاسم بن مُحَمَّد بن أبي بكر قال: غدوت يوماً، وكنت إذا غدوت بدأت بعائشة ﷺ– لأنها عمته وهي التي ربته في حجرها بعد موت أبيه– أسلِّم عليها، فغدوت يوماً عليها، فإذا هي تصلي صلاة الضحى، وهي تقرأ قوله تعالى: [فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ[1]]، وتبكي وتدعو. فلما رأيت ذلك، ذهبت إلى السوق فقلت: أفرغ من حاجتي. ثم أرجع، ففرغت من حاجتي، ورجعت وهي كما هي، تردد الآية وتبكي وتدعو.

وقال أبو الدرداء ﷺ: لولا ثلاث ما أحببت البقاء يوماً واحداً، الظمأ لله بالهواجر– يعني الصوم– والسجود لله في جوف الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام، كما ينتقي أطايب التمر.

وعن زيد بن أسلم قال: كان عمر بن الخطاب ﷺ يصلي من الليل ما شاء أن يصلي، حتى إذا كان أخر الليل، أيقظ أهله للصلاة.

ووصف الحسن البصري أصحاب رسول الله ﷺ فقال: والله لقد رأيت أقواماً كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذي يمشون عليه، ما يبالون أشرقت الدنيا أم غربت، ذهبت إلى ذا أم ذهبت إلى ذا.

---

[1] سورة الطور الآية: ٢٧

هذا حال رسول الله ﷺ، وحال أصحابه الكرام. ومنه يعلم أن التصوف العملي غير حادث في الملة الإسلامية وإنما هو منوط بنشأة الإسلام الأولى. بل الواقع أن التصوف بهذا المعنى موجود في كل ملة، وجاء به الأنبياء والمرسلون صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، إذ هم جميعاً لم يبعثوا إلا لتزكية الطباع وتهذيب النفوس وصرفها عن شهوات الدنيا الفانية.

وأما التصوف باعتباره علماً فإذا نظرنا إليه من حيث أصله ومادته الأساسية نجد أن تاريخه مرتبط بتاريخ الإسلام أيضاً. للقطع بأن مداره– كما سبق– على الكتاب والسنة فإنه لا يمكن أن يكون خارجاً عنهما بأي اعتبار.

قال الإمام ابن عبدالسلام في "قواعد الأحكام" ليست الحقيقة وهي علم التصوف– خارجة عن الشريعة، بل الشريعة طافحة بإصلاح القلوب بالمعارف والأحوال. والعزوم والنيات.. وعن الجنيد: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسُّنة.. وقال أيضاً: من لم يحفظ القرآن، ويكتب الحديث، ولم يتفقه لا يقتدى به في هذا الأمر.

وأما إذا نظرنا إليه من حيث ما وقع فيه من الكلام عن الخواطر والأذواق والبحث عن أحوال النفوس؛ وبيان شهواتها، ودسائسها الخفية، ونحو ذلك.. فشأنه شأن بقية العلوم الأخرى كالفقه وأصوله، والتوحيد، والمعاني.. التي لم تقع العناية بالنظر فيها والبحث في مسائلها وفروعها وتقرير المصطلحات الخاصة بها إلا بعد عصره ﷺ.

والمعروف أن أول من تكلم في علم التصوف بهذا الاعتبار الحسن البصري رضي الله عنه. قال أبو سعيد ابن الأعرابي لم يبلغنا أن أحداً تكلم في هذه المذاهب– يعني أحوال النفوس– ودعا إليها وزاد في بيانها وترتيبها، وصفات أهلها مثل الحسن البصري. وفي (الفوت) لأبي طالب المكي: وكان الحسن أول من أنهج سبيل هذا

العلم وفتق الألسنة به، ونطق بمعانيه، وأظهر أنواره وكشف قناعه، وكان يتكلم فيه بكلام لم يسمعوه من أحد من إخوانه، فقيل له يا أبا سعيد، إنك تتكلم في هذا العلم بكلام لم نسمعه من أحد غيرك فممن أخذت هذا؟ فقال: من حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه.. وروي أنه لما دخل الإمام علي رضي الله تعالى عنه البصرة جعل يخرج القصاص من المسجد ويقول لا يقص في مسجدنا، حتى انتهى إلى الحسن وهو يتكلم في هذا العلم فاستمع إليه ثم انصرف ولم يخرجه- ذكره في (القوت) أيضاً- وهذا صريح في أن الحسن كان يتكلم في هذا العلم بالمسجد، مع أن صاحب (القوت) نفسه ذكر في موضع آخر أن الحسن كان حين يتكلم في هذا العلم يخلو مع إخوانه وأتباعه من النساك والعبَّاد فيحمل على أنه كان أو لا يتكلم فيه بالمسجد ثم بدا له أخيراً أن يخلو به مع الخاصة من أتباعه.. وعلى كل حال فالعناية بعلم التصوف لم تظهر بشكل واضح إلا في القرن الثالث من الهجرة النبوية حيث انتصب الإمام أبو عبدالله الحارث بن أسد المحاسبي والإمام أبو القاسم الجنيد رضي الله عنهما لتشييده، ونصرة مبادئه، والإستشهاد على ذلك بنصوص الكتاب والسنة.. وقد اقتفى أثرهما في ذلك كل من جاء بعدهما من أساطين هذا العلم. كل يجتهد على قدر وسعه؛ ومبلغ علمه في نصرته وتمهيد قواعده وبيان أصوله، وآدابه بطريق المذاكرة والمدارسة أو بطريق الكتابة والتأليف إلى زمننا هذا. كما هو الشأن في العلوم والفنون الأخرى.

الفرق بين الصوفي وغيره

فإن قلت: ما الفرق بين الصوفية وغيرهم من الفقهاء والمتكلمين والمحدثين وسائر طوائف المسلمين؟.. قلت: أما في الأصل، وبالنظر لعهد السلف الصالح فلم يكن هناك صوفية وغير صوفية. حيث كان الكل على

طريق الهداية والحق، مقبلين على الله تعالى، مشتغلين بعبادته، معرضين عن الدنيا بقلوبهم وبواطنهم، وإن زاولوها بظواهرهم [رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ(١)].

فلما جنح الناس إلى مخالطة الدنيا، وأخذوا يتزحزحون عن الهدى النبوي شيئاً فشيئاً، ودب الضعف إلى القلوب، وتسرب الفساد إلى الأعمال– اختص المقبلون على العبادة القائمون على محاسبة أنفسهم، ومراعاة قلوبهم، المحافظون على سنة رسول الله ﷺ والسلف الصالح رضوان الله عليهم بإسم الصوفية.

قيل لعبدالواحد بن زيد: من الصوفية عندك؟ فقال: القائمون بعقولهم على فهم السنة، والعاكفون عليها بقلوبهم، المعتصمون بسيدهم من شر نفوسهم.. هم الصوفية.

فخاصة الصوفية وميزتهم مراعاة أنفاسهم مع الله تعالى، وحفظ قلوبهم من طوارق الغفلة، وصرف اهتمامهم لعمل الباطن، وحسن السريرة، وعدم التطلع لملاحظة الخلق.. فمن لم يكن كذلك فأعماله عندهم كالهباء، لا يثبتونها ولا يعولون عليها وأما غيرهم من بقية الطوائف فإنما يعولون على ما ظهر من الأعمال، وغاية جهدهم أن تكون أعمالهم موافقة لظاهر الشرع. فما أنكره الشرع ظاهراً أنكروه، وما مدحه مدحوه. ولا اهتمام لهم في الغالب بأمر السرائر وأحوال القلوب.

وهذا معنى قول رويم رضي الله تعالى عنه– وكان من كبار المشايخ– كل الخلق قعدوا على الرسوم، وقعدت هذه الطائفة على الحقائق. وطالب الخلق

---

(١) سورة النور الآية: ٣٧

أنفسهم بظواهر الشرع، وهم طالبوا أنفسهم بحقيقته، ومداومة الصدق يعني أن الناس قد صرفوا هممهم وبذلوا جهدهم في مراعاة الظواهر، والمحافظة على رسوم العبادات والمعاملات وأشكالها فقط.

ولكن الصوفية طالبوا أنفسهم– مع المحافظة على ظواهر الأوامر والنواهي– بحقائقها وثمراتها المقصودة منها، ولزوم الصدق مع الله تعالى، والتبرِّي من الحول والقوة في عموم الأوقات.

وفي كتاب "القواعد" لسيدي أحمد زرّوق رضي الله تعالى عنه قال: نظر الصوفي أخص– أي أعلى– من نظر الفقيه، إذ الفقيه يعتبر ما يسقط الحرج، والصوفي يعتبر ما يحصل الكمال، وأخص من نظر الأصولي– يعني الباحث في علم التوحيد– لأن الأصولي يعتبر ما يصح به المعتقد، والصوفي يعتبر ما يتقوى به اليقين، وأخص من نظر المفسِّر وصاحب فقه الحديث لأن كلاً منهما يعتبر الحكم والمعنى ليس إلا، وهو يزيد بطلب الإشارة بعد إثبات ما أثبتوه، وإلا– يعني وإن لم يثبت ما أثبته المفسرون وشراح الحديث– فهو باطني خارج عن الشريعة فضلاً عن المتصوفة.

فحظُّ الصوفية من ميراث رسول الله ﷺ أوفر الحظوظ لأنهم اتبعوه في أقواله، فقاموا بما أمرهم به، ووقفوا عما نهاهم عنه. ثم اتبعوه في أحواله، من الجد والاجتهاد في العبادة، والتقرب إلى الله تعالى بالنوافل، والتخلي عن الحظوظ، ثم اجتهدوا في التأسي به في أخلاقه من الحلم والصبر، والتوكل، والخشية، والمحبة، والرضا جهد الطاقة إذ لا يمكن أن يلحقه ﷺ في أعماله وأحواله وأخلاقه مخلوق كائناً من كان.

قال في المباحث:

حجـــة مـــن يـــرجح الصـــوفية		علـــى ســـواهم حجـــة قويـــة

هـــم أتبـــع النـــاس لخـــير النـــاس		مـــن ســـائر الأنام والأناســـي

تبعـــــه العـــــالم في الأقـــــوال		والعابـــد الناســـك في الأفعـــال

وفيهمـــا الصـــوفي في الســـباق		لكنــــه قـــد زاد بالأخـــــلاق

هذا هو التصوف الإسلامي الذي نفهمه، ونعتقده، ونتشرف بالانتساب إليه، مع تقصيرنا في التحلي بحلية أهله.

أما ما عليه أهل البطالة والجهالة الآن، وقبل الآن بزمن طويل، من الصخب والصياح، والاحتيال على جمع الحطام الفاني، وأكل أموال الناس بالباطل، مع التهاون في الأوامر الشرعية والآداب الإسلامية فليس من التصوف ولا من الدين في شيئ.

لـيس التصـوف لـبس الصـوف ترقعـه		ولا بكـــاؤك إن غـــنى المغنـــونا

ولا صـــياح ولا رقـــص ولا طـــرب		ولا اختبـاط كـأن قـد صـرت مجنـوناً

بـل التصـوف أن تصـفو بـلا كـدر		وتتبـــع الحـــق والقـــرآن والـــدينا

وأن تـــرى خائفـــاً لله مكتئبـــاً		علـى ذنوبـك طـول الـدهر محـزوناً

لو صح منك الهوى أرشدت للحيل

إن قلت: على الرغم مما حاولت من تيسير أمر التصوف، وتقريب معناه، وجعله مذهباً واقعياً، لا يصادم الفطرة، ولا يتحدى الطبيعة البشرية فإنا نراه مقاماً عزيزاً، ومذهباً صعباً، وطريقاً وعراً، كثير العقبات والمشقات..

لا يقدر على سلوكه إلا بترك كثير من محبوبات النفس ومألوفاتها.. من حب المال والجاه وتوابعهما.. فكيف هان على القوم سلوك هذا الطريق؟

وكيف أمكنهم القيام بمراعاة أنفاسهم، وحفظ قلوبهم من طوارق الغفلة، وعكوفهم على سُنة رسول الله ﷺ؟ وكيف أطاقوا المواظبة على مجاهدة نفوسهم إلى هذا الحد؟!!

قلت: أما أنه مقام عزيز وطريق وعر، فمما لا خفاء فيه. وبهذا صرح الأشياخ قديماً وحديثاً.. لا ليثبطوا عنه الهمم، ولا ليصرفوا عه الناس.. بل ليعد له المريد عدته، ويأخذ له أهبته.

قال عبدالله بن خفيف: قلت لرويم! أوصني. فقال: ما هذا الأمر- يعني التصوف- إلا ببذل الروح. فإن دخلت فيه على هذا، وإلا فلا تشتغل بترهات الصوفية.

وقال أبو البركات الدردير في أول تحفته: واعلم يا أخي أن طريق القوم عزيزة لا يهتدى فيها- أي لا يعرفها ولا يثبت فيها- إلا المختار..

ولهذا كان أهل هذا الطريق أقل الناس عدداً. وإن كانوا أعظمهم قدراً، وأرفعهم محلاً..

وأما كيف هان على القوم سلوكه.. وكيف أمكنهم القيام بمجاهدة نفوسهم، ومراعاة أنفاسهم.. إلخ، فقد سئل إمام الطائفة أبو القاسم الجنيد مثل هذا السؤال. قيل له كيف السبيل إلى الانقطاع إلى الله تعالى؟ فقال: بتوبة تزيل الإصرار، وخوف يقطع التسويف، ورجاء يبعث على مسالك العمل، وإهانة النفس بقربها من الأجل، وبعدها عن الأمل.. قيل له: فيم يصل العبد إلى هذا؟ فقال: بقلب مفرد، فيه توحيد مجرد.. فجعل القلب المفرد وهو المشغول بالله دون سواه المحشو بخالص التوحيد وصافي المعرفة هو الذي يبعث الإنسان على التوبة والخوف والرجاء وقصر الأمل، وهو الذي يهون عليه مشقة المجاهدات

والمكابدات، ويجعله لا يرى صعباً دون مطلوبه بل يستعذب العذاب في نيل مرغوبة.

فيا حبذا الأسقام في جنب طاعتي أوامر أشواقي وعصيان عذالي

ويامـا ألـذ الـذل في عـز وصـلكم وإن عـز. مـا أحلـى تقطـعَّ أوصـالي.

وفي الإحياء: أول مقامات الدين اليقين الذي هو عبارة عن قوة الإيمان بالله تعالى، واليوم الآخر، والجنة والنار. وهذا اليقين يهيج بالضرورة الخوف من النار، والرجاء في الجنة.. والرجاء والخوف يقويان على الصبر، فإن الجنة قد حفت بالمكارة فلا يصبر على تحملها إلا بقوة الرجاء، والنار قد حفت بالشهوات فلا يصبر على قمعها إلا بقوة الخوف.. ولذلك قال الإمام علي رضي الله تعالى عنه: من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار يرجع عن المحرمات. ثم يؤدي مقام الصبر المستفاد من الخوف إلى مقام المجاهدة والتجرد لذكر الله تعالى والفكر فيه على الدوام.

والخلاصة: أن النفس الإنسانية خصائصها عجيبة، وآثارها مدهشة، في جوهرها كنوز مكنوزة من المعارف والأسرار، وفي فطرتها طاقات كامنة– علمية وعملية– لا نهاية لها، ومتى غلب عليها شيء من المحبة أو الخوف أو الرجاء شغلها واستولى عليها وهاجها إلى الجد والعمل، وحملها على ركوب الصعاب وتحمل المشاق.

والصوفية قد عرفوا هذا.. وفطنوا له.. وعلموا أن الرياضة والتمرين وكثرة المزاولة للعمل تكسب الإنسان قوة ومهارة، وتجعل الأمور المتكلفة بمثابة الجبلة والطبع.. البدن يتمرن على الحركة والعمل.. والنفس تتمرن على الأخلاق والآداب.. والعقل يتمرن على الغوص في دقائق العلم وغوامض المسائل.

فالإنسان بدنه، ونفسه، وعقله كل ذلك قابل للرياضة والتمرين، ورؤية العباد، وصحبة العارفين أصحاب الأنفاس العالية تحيي الهمم، وتبعث النشاط.

قال بعضهم: كنت إذا اعترتني فترة في العبادة نظرت إلى مُحَمَّد بن واسع- كان من كبار الزاهدين العباد- فعملت على ذلك أسبوعاً.

ومتى علم الله تعالى من العبد الإخلاص في نيته، والصدق في محبته جذبه إليه وشغله بذكره وطاعته حتى يصير له ذلك بمثابة القوت، لا يصبر عنه لحظة.

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله تعالى قال: من عاد لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذ بي لأعذته".

ومعنى كنت سمعه الذي يسمع به.. إلخ- شغلت بمحبتي، وذكري، وطاعتي حواسه وجوارحه، فلا تبقى له حاسة ولا جارحة تتصرف إلا لله وبالله تعالى.

وهذا معنى قول الله عز وجل: [أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى[1]] أي جعلها خالصة لتقواه عز وجل، مؤهلة للقرب من حضرته بمنع ما يشغلها من العلائق، وإزالة ما يقطعها من الشهوات التي هي في الحقيقة أجنبية عنها طارئة عليها.. وذلك لأن القلوب إنما خلقت مستقيمة سليمة من الأمراض عندما التذت بمشتهيات الجسد بواسطة الحواس التي يسبق وجودها في الإنسان، وتظهر آثارها فيه قبل كمال العقل وإشراق نوره، فإذا كمل العقل وتأيد بنور الشرع، وأسعفه الله تعالى بتوفيقه أمكنه أن يقمع هذه الشهوات،

---

[1] سورة الحجرات الآية: ٣

ويقف بها عند حد الحكمة والشرع.

ثم إن القوم لم يدخلوا في هذا الأمر دفعة واحدة. بل دخلوا فيه بالتدريج وأوغلوا فيه برفق.. عملاً بقول نبيهم الحكيم صلوات الله وسلامه عليه: "إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق". وقوله عليه الصلاة والسلام: "إن المنبت لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى".. واحتالوا على النفوس احتيالاً، وجذبوها إلى الكمال شيئاً فشيئاً، حتى استقامت على أمر الله تعالى ونهيه، واطمأنت إلى عبادته وذكره فنالوا بذلك الخير العميم والربح العظيم. ومن جرب عرف، ومن صدق في مجاهدة نفسه رأى منها العجب العجاب.

قال صاحب المباحث:

واحتـل علـى الـنفس فـرب حيلـه أنفـــع في النصـــرة مـــن قبيلـــه

والله تعالى المسئول أن يُيسر علينا أسباب طاعته، ويفتح لنا أبواب رحمته. ويجعلنا من عباده الصالحين.

والحمد لله رب العالمين.. وصلى الله تعالى على سيدنا ومولانا مُحَمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفهرس